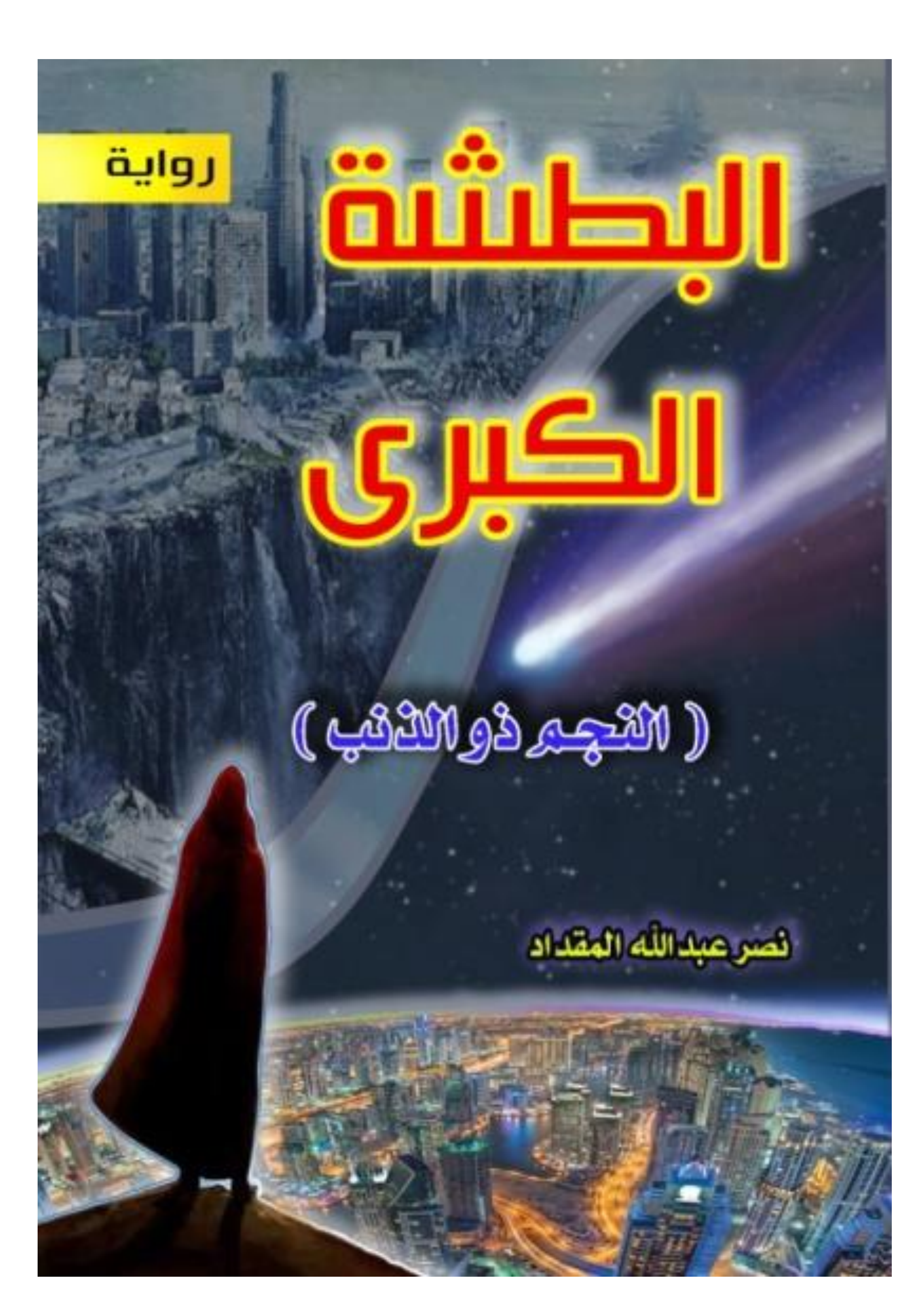

رواية
البطشة الكبرى
(النجم ذو الذنب)
نصر عبد الله المقداد

1441 هـ

نصر عبد الله المقداد

الرواية الخيالية الواقعية:

البَطشَةُ الكُبرَى

(النجم ذو الذنب)

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (   )

المقداد، نصر عبد الله

البطشة الكبرى (النجم ذو الذنب) / نصر عبد الله – عمّان: دار .....

ر: (/   / 2020)

المواصفات // رواية // البطشة // الكبرى // الفتن // الملاحم // المهدي

مراجعة وتدقيق:

الأستاذ الروائي محمد فتحي المقداد

الأستاذ الشيخ شادي عيسى

الأستاذ الشيخ علي المقدادي

تصميم الغلاف: الفنان عماد المقداد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

البطشة الكبرى

(النجم ذو الذنب)

نصر عبد الله المقداد

قال تعالى:

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُون [15] يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُون﴾

[الدخان: 15 – 16]

عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم، فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع "الكوكب ذو الذنب"؛ فخشيت أن يكون "الدخان" قد طرق، فما نمت حتى أصبحت. **رواه: ابن جرير وابن أبي حاتم. قال ابن كثير في تفسيره: إسناده صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما.**

تنويه...

إن جميع شخصيات الفصلين الأخيرين هي شخصيات حقيقية.

أما بطل الرواية والأبطال الثانويين فهم شخصيات مزيج بين الواقع وخيال المؤلف.

تقديم

بقلم الروائي - محمد فتحي المقداد

في زمن الانحدار الحضاريّ غالبًا ما تتّجه الأنظار والرُّؤى عوْدًا على بدء إلى الزّمن الغابر؛ للتغنّي بسالف الأمجاد والانتصارات، بمغادرة أرض الواقع ذهابًا إلى دائرة (كان)، بدل معالجة الواقع للخروج برؤية تزاوجيّة بين الماضي والحاضر، لتكون جسر عُبور للمستقبل.

وفي مثل هذه الأوقات ما تتعلّق الأنظار الملهوفة إلى مجيء البطل المُخلّص، أو حصول معجزة تكسر قالب العجز في الفعل الحضاريّ، وإذا حقّ لنا وصف ذلك بالهروب إلى الأمام؛ لتجاوز عنُق الزّجاجة، أو ربّما بدفن الرأس في الرّمال والتّعامي عن معالجة ذلك برؤية للخروج من المأزق.

وبالتوقّف على حالة الأستاذ (**نصر عبدالله المقداد**) الباحث في قضايا إسلاميّة مهتمّة بقضايا الأمّة، فقد أصدر بحثيْن فكريّيْن مطبوعين، جاءا على درجة من الأهميّة بتطبيقاتهما على الواقع، وهما **(الخلافة المقدسيّة)** و**(الفتن الواردة في القرآن الكريم)**. وله العديد من الأبحاث المخطوطة في مجال الفتن والملاحم.

وجاء عمله الروائيّ (**البطشة الكُبرى**) والمأخوذ عن الآية الكريمة: (**يومَ نبطشُ البطشةَ الكُبرى، إنّا مُنَتقِمُون**). ويأتي هذا العنوان ليكون عتبة الرواية بدلالته القويّة الظّاهرة والخفيّة، ليضع القارئ في دائرة القدرة الإلهيّة التي تتجاوز الزّمان والمكان، وقدرات العقل على التخيّل.

تعتبر الرواية قفزة نوعيّة باستشراف وقراءة المستقبل، بعين ثاقبة دارِيَةٍ بما سيكون عليه، وهذا الحدس المُتولّد عن الذّات الواعية، المُكلّلة بالقراءات والدراسات البحثيّة، التي أفسحت المجال لاتّساع الرّؤية ما بين الماضي والحاضر والمستقبل، وعمل تسوية سرديّة من خلال حدث روائيٍّ استوعب ما ذهب إليه الباحث (**نصر المقداد**) من تسوية تقاربيّة ما بين أقانيم الزّمن.

في البداية نوّه المؤلّف، إلى أنّ: (**جميع شخصيّات الفصلين الأخيرين، هي شخصيّات حقيقيّة، أمّا بطل الرّواية، والأبطال الثانويّين فهم شخصيّات مزيج بين الواقع وخيال المؤلّف**). ولكي لا يتركنا في حيرة التّخمين، فقد فتح لنا الباب المُوارب على مِصراعيْه، ليخبرنا بحقيقة الأمر.

يعني ذلك أنّ الرواية تُصنّف أدبيًّا ما بين المدرسة الواقعيّة والخياليّة، من خلال الخلطة الروائيّة المشوقة لمتابعة القراءة، باستقراء دقيق مُتقن مُركّز على إعادة دراسة وتأويل الأحاديث النبويّة الشّريفة، استنادًا على توافقاتها مع بعض الآيات الكريمة، وعمل إسقاطات تاريخيّة لصنع تقاطعات من المعلومات التي تشّكل سدى ولُحمة رواية (**البطشة الكُبرى**).

وفي قول مُقتبس من كتاب (**سكوفيلد- النبوءة والسياسة**) في مقدمة المؤلّف: (**عامًا بعد عامٍ، سوف يصل عالمنا إلى نهايته بكارثة ودمار، ومأساة عالميّة نهائيّة**). فكانت النتيجة حسب نظرة الباحث والرّوائي (**نصر المقداد**) أنّ: (**مُصارع القدر مغلوب**)، (**انقطاع الزّمان**)، و (**حَدَثَ غدًا**). ويُخبرنا بأن بطل الرّواية (**مُهاجر**)، والاسم دالّ على الهجرة والاغتراب عن الأهل والوطن في سبيل نصرة الحقّ، ومحاربة الباطل.

(لذا يرفض (مُهاجر) أن يُصرّح من أيّ بلد هو. أو من أيّ مدينة أو قرية، فلم يعُد لتحديد ذلك أدنى أهميّة تُذكر؛ فالمصير واحد، والنّهايات واحدة، وسُنن الله في الكون لا تُحابى ولا تُجامَل، ومهما تعدّدت الأسماء الجيوسياسيّة للأوطان المُعلنة فلن يتغيّر القَدَر المكتوب).

(نعم، نحن نعيش الآن في مرحلة "انقطاع من الزّمان"، هكذا يحلو لـ"مُهاجر" تسمية هذا الزّمن، الذي أطبقه عليه بعد أن مرّ بتجارب صقلت معارفه، ووسّعت مداركه، حتّى أصبح يرى الغد بعيون الحاضر، وإذا حدّث عنه فإنّه يقول بيقين: "حدَثَ عدًا"، وكأنّه أوتي فراسة نورانيّة، قد يُسمّيها البعض بـ"الحّاسّة السّادسة").

وقد نقلنا الروائي إلى موضوع مهم له خطّه الأساسي الواضح في مُنعرجات السّرد الرّوائيَ، بنظريّة أسماها (**الإسكاتولوجي**)، وحسب المؤلِّف فهي مصدرها العلوم التاريخيّة، وينتج عن ذلك: **(فأعطاه هذا العلم الفراسة، وأكسبه الحياديّة المميّزة للحقائق، ودلّه على أهم مفاصل الخارطة المُستقبليّة للأحداث، وعلّمه**

على أبرز أسرارها، فكانت فلسفة استقرائيّة استشرافيّة متينة، بلورتها، وصقلتها رحلته الفريدة عبر الزّمن إلى الغد). ويُعقّب المؤلّف مُردفًا: **(لا أقولُ عن الإسكاتولوجي، بأنّه علم استقراء المُستقبل، بل معرفة طرق استقراء ما يُحاك في كهوف الظّلام، لأجل صناعة المُستقبل).**

وبقدر الفجوة الفاصلة بين حاضرنا وزمان الرّواية، فإنّها تتّسع الهُوّة في ذهن القارئ للرواية، بين مكان المعلوم المنظور، وزمانه الذي هو فيه، إلى عوالم وأزمان بأماكن مجهولة، تجعل تصوّرها صعبًا في الذّهن. وستكون الرواية لبِنة في عوالم المُستقبليّات، لا ندري شيئًا عن إمكانيّة تمثّلات تحقّقها، كما تأكدّت في ذهن الروائيّ **(نصر المقداد)** وبطله **(مُهاجر).**

أطيب أمنياتي بالتوفيق والنّجاح.

عمّان - الأردن

21\ 3 \ 2020

مقدمة..

مُصارِعُ القَدَرِ مغلوب، ومُنتهَى الأزمان مكتوب، والخوض في ميادين الغيب مُقيّد بإخبار الوحي، مُفعمٌ بدقّة النّظر، ليس كل إنسان يُحسن الإبصار في غوامض إشاراته، وصحيح الخبر.

وللنبوءة مكانة مُؤثِّرة وفعَّالة في المشهد السياسي، وأكثر من ذلك على المسرح الجماهيري، وأهمّ من كل هذا تأتي أهمية النبوءة على مستوى صنّاع الحدث، ومشعلو الحروب، أصحاب الوجوه المقنّعة، والأيدي الخفية، في الغرف المُظلِمة.

يعتقدون بأنه (عاماً بعد عام، سوف يصل عالَمُنا إلى نهايته بكارثة وبدمار، ومأساة عالمية نهائية)[1].

وإن كان طريق الحياة طويلٌ وشاق، فلأنه محفوفٌ بالمهالك والمَخاطر، مزروعٌ بمطباتٍ مصنوعةٍ موضوعة، منها

---

[1] سكوفيلد، النبوءة والسياسة، ص 20.

ما هو بأيدينا، ومنها ما هو بأيدي أعدائنا، ومنها ما هو مصيرٌ كوْنيّ لا طاقة لنا به، وكل ذلك قَدَرُ هذه الأمة المرحومة، لذا: (فمُصارع القَدَر مغلوب).

فمن كُتِب له المُضيّ في هذا الطريق العَسير، فسيمضي فيه شاء أم أبى، قضاءً وقدراً مكتوباً، ومهما تعددت السُّبُل، فالنهايات المحتومة هي ذاتها.

ومن هؤلاء الذين مشوا في هذا الطريق ثم كُتِبَ له العودة ليخبرنا بمشاهداته، بطل هذه الرواية الشاب الأسطوري: مُهاجر.

مُهاجر، شابٌّ يافعٌ شديدُ الحيوية، واحدٌ من هذه الأمّة، لكنه ليس كأي واحد فيها، فالذي يُميّزه عن غيره، أنّه كابد مُبكِّراً ما ستكابده البشرية جمعاء في إحدى نهايات مطافها مستقبلاً، فقد كُتِبَ له السفر إلى المنتهى المحتوم قبل حدوثه، ومعايشة "الاسكاتولوجي"[2] الأخير قبل أوانه، ليخطَّ لنا ما وعاه صدرُهُ، وشاهدَهُ نَظَرُه، مُحذّراً من عواقب غضب الله تعالى، جرّاء فتنِ

[2] سيناريو آخر الزمان.

بني آدمَ وإفسادِه في الأرض التي أصلحها الله تعالى له، وأمره بالاستخلاف فيها وعمارتها.

صحيحٌ أن "مهاجراً" لم يعشْ أو يتنقل في مراتب الحياة الخمسة، التي تحدث عنها بديع الزمان النورسي في "رسائل النور"[3]، ولكنه مرّ بمرحلة غريبة فريدة، لم يمرّ بها أحدٌ مِن قبل، وإنها لجديرة بالغوص في أعماقها، لمعرفة تفاصيلها ونتائجها.

إنها مرحلة "**البرزخ الكهفي**"، وهي أشبه ما تكون بقصة أهل الكهف والرقيم، ربما يسموها " **تجربة الموت الوشيك**"، بَيْدَ أنّه ترك لنا رسالة واضحة بما رآه من أحداث رهيبة، ليخبرنا بتجربته الثريّة الفريدة، عن أحداث مستقبلية عايشها وكُتبت علينا، أو ربما كُتبت على الذين من بعدنا.

هذه الأحداث لم نسمع بمثلها، ولا حتى في أساطير وخرافات الأولين، فبعضها يتحدث عما سيمرُّ من الرعب والفناء للبشرية جمعاء، وبعضها الآخر يصف ما سيكون من العدل والعطاء والمساواة، حتى يرعى الذئب مع الغنمة، ويلاعب الطفل الحية لا يخشى غدرها، ويأكل الرمانة الواحدة العصابة من

---

[33] سيأتي ذكرها في الفصل قبل الأخير من الرواية.

الناس، ويستظلون بقِحفها[4]، وترى اللِّقحة من الإبل لتكفي الفِئام من الناس[5]، بعد العودة إلى حياةٍ ما قبل الحضارات، ولأنها تختص بنهايات الزمان، كانت تتميز بالفرادة والثراء.

لذا يرفض مهاجر أن يُصرِّح مِن أي بلدٍ هو، أو من أيِّ مدينة أو قرية، فَلَم يَعُد لتحديد ذلك أدنى أهمية تُذكر، فالمصير واحد، والنهايات واحدة، وسنن الله في الكون لا تحابي ولا تجامل، ومهما تعددت الأسماء الجيوسياسية للأوطان المُعلّبة، فلن يتغير القدر المكتوب، لذا فإن: "**مُصارِع القَدَر مغلوبٌ**"، فالأرضُ كلُّ الأرضِ، عنوانٌ واحد لكلِّ بني آدم.

(نعم، نحن نعيش الآن في مرحلة "**انقطاع من الزمان**")، هكذا يحلو لمهاجر تسمية هذا الزمن، الذي أطلقه عليه بعد أن مرّ بتجارب صقلت معارفه ووسَّعت مداركه، حتى أصبح يرى الغد بعيون الحاضر، وإذا حدّث عنه فإنه يقول بيقين: "**حَدَثَ غداً**"، وكأنه أوتي فراسة نَوْرانيّة، قد يسميها البعض بـ "الحاسّة السادسة".

---

[4] قال الإمام النووي: (قِحْفُهَا) هُوَ مُقَعَّرُ قِشْرِهَا، شَبَّهَهَا بِقِحْفِ الرَّأْسِ، وَهُوَ الَّذِي فَوْقَ الدِّمَاغِ، وَقِيلَ: مَا انْفَلَقَ مِنْ جُمْجُمَتِهِ وَانْفَصَلَ.

[5] اللقحة: هِيَ الْقَرِيبَةُ الْعَهْدِ بِالْوِلَادَةِ، وَاللَّقُوحُ ذَاتُ اللَّبَنِ. وَالْفِئَامُ: هِيَ الجَمَاعَةُ الْكَثِيرَةُ.

ففي نظريتِه الفلسفية الخاصة به، أنه إذا كان الزمان عند الناس يقاس بالأيام والأشهر والسنوات، فإنه في فلسفته الخاصة، يُقاس بالأفعال التي تُؤثِّر في العالم إيجاباً، وتساعده على التطور والازدهار.

لقد نشأت هذه النظرة الفلسفية عند مهاجر عندما تساءل ذات يوم، وهو ينظر في معاناة أهل زمانه، من بطش ذلك الثلاثي الغاشم، عدوّ التحضّر والعمران، الذي يُشكِّل الجبهة الأولى، ضدَّ الاستقرار والأمن والازدهار من داخل الأمة، إنه الثلاثي المتمثل بـ: "**الطغاة والبغاة والغلاة**"، جلسَ مهاجر متأمِّلاً أُفُق المستقبل:

(تُرى مَن مِن هذه الشعوب المقهورة، لا يحلم بخلافة إسلامية تعيد أمجاد الماضي، وتملأ الأرض عدلاً وقسطاً، بعدما مُلئت ظلماً وجوْراً؟

كم واحد منا فكّر أو بحث في موعد قيام هذه الخلافة الموعودة؟ متى ستُقام؟ وكيف؟ وأين؟ وعلى يد من؟

وهل هي استحقاق بعد إنابة وجهاد؟ أم أنها محضُ عطاءٍ وتفضُّلٍ من الله تعالى؟ بعد عجزٍ وضعفٍ وقِلّةِ حِيلة.

وبعد هذا البطش الدائم في زمن الجبابرة والطواغيت، بطش الطغاة والبغاة والغلاة، الذين لم يوقنوا بقوله تعالى:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيد [12] إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيد﴾ [البروج: 12– 13]

وبما أن الجزاء من جنس العمل، وأن هؤلاء الجبابرة لا يتركون خلفهم إلا طواغيتاً أكثر إجراماً منهم، في تسلسل طاغوتي متين، يتكادمون على الحكم تكادم الوحوش المستعرة.

لذا.. هل ستأتي هذه الخلافة على أثر بطشة ربانية كبرى؟ تنسجم مع حجم الظلم وانتشار البغي والفساد، لتبدأ دورةٌ جديدةٌ، لحياة عنوانها: **الأمل الجديد بعد البطشة الانتقامية، فكيف أنتم عاملون؟**

فهل ستكون هذه الخلافة فرصة أخيرة، لكي تثبت هذه الأمة بأنها إذا ما أُزيل عنها رجس الطغاة والجبابرة، فإنها ستحارب البغاة والغلاة بنفسها، وبعقيدةٍ ثابتة، لتكون خير أمّة أُخرجت إلى الأرض، فتنجح في حُسن استثمارها عالمياً؟

إن الأمَّة حين تصبح في "انقطاع مُظلم" من الزمان، و"خروج مُخجلٍ" من قدسية المكان، وغثائية بلا تأثير بين الأمم، وشخصية بلا بصمة فارقة، فإن تاريخها المجيد لن يشفع لها هذا الواقع المزري الذي وصلت إليه، لأنه كسب عملي، جاء من الركون إلى آلة الحرث وترك آلة الجهاد، فطُبع في القلوب حبّ الدنيا وكراهية الموت، فمن زرع حصد، ولا عزاء لمن جنت يداه ما اكتسبت، بعد أن فقد كل شيء..

فلا هي خرجت من الزمان، ولا ضاق عليها المكان الرحب، ولا فقدت بصْمَتها المميزة، إلا بعد أن تخلَّت عن سنن الحُكم الخاصة بها ولها، والتي أوصاها بها نبيها الكريم ﷺ، فتقاتلت عليه، وأصبح بأسها بينها شديداً، وفقدت حكمتها وعقلها الرشيد.

لقد انسلخت الأمة عن منهج فطرتها السليمة، وطابع أميّتها الموسومة بها، والتي جُبلت عليها، فحَقّ عليها الشتات كما حقّ على الذين من قبلها، ونزل بساحاتها الهَرَب والحَرَب، وكُتبت عليها الهجرة والنزوح واللجوء، وغدت معلّقة على صليب الاتباع والتقليد، والأخذ بسنن الأمم التي من حولها، فلا هي

عرجت إلى عنان السماء نهاراً، ولا هي أَسْرَت إلى مقدساتها ليلاً.

وإنني إن أقررتُ بأنها تقف على شفا جرف هارٍ، أو فوهة حفرة عميقة ما لها من قرار، توشك أن تهوي فيها، إلا أنني لا أُقرُّ بأنها تموت هلاكاً واستئصالاً، ذلك لأنها في الفصل الأخير من مسلسلها، سيُنقذها الله بتلك الأسرة المصطفاة ذاتها، التي عرفت الأمة العزة والمَنَعة في أول عهدها بها، فكما بدأ أولها بها فسيُنقذ آخرها بها، فبها البداية، ومعها الاستقرار والأمان التوافقي، الذي إن استعصمت بها الأمة قضت على الثلاثية: الطغاة والبغاة والغلاة، ومعها الختام والنهاية، كيف لا وقد بدأت بنبوة هاشمية، ثم توسعت بخلافة قرشية، وستنتهي بمهدوية هاشمية.

فإن الأمة التي مرت بخلافة راشدة قرشية، ثم مُلك أموي قرشي، ثم مُلك عباسي قرشي، ثم سلطنة عثمانية على خطى الجهاد والفتوح القرشية، وأوصلت رسالتها عبر تلك العهود إلى أصقاع الأرض كافّة، قد توقف دوران رحاها منذ قرابة قرن من

الزمان، منذ إعلانِ إنهاء آخر خلافة جامعة، وحلّ بدل قريش عساكر الجيش، فأصبح مُلكا جبرياً عسكرياً.

ولن يعود الزمان ليكمل حركته ودورته الكونية، إلا بعد أن تعود الخلافة في صورتها الأخيرة في بيت المقدس، خلافة هاشمية مقدسية، فيعود لها عزها ومجدها التليد، ومكانتها المؤثرة بين الأمم.

فليس في خارطة "**الزمكان**" التي في فلسفتي الخاصة مكاناً ولا زماناً، لغثائيةٍ فوضويةٍ دهماء، لا بصمةَ لها ولا شخصيّة، حتى تتحرر من عبوديتها المكتسبة من جرّاء التقليد والاتباع، وتعود لتمضي تحت راية تلك الأسرة المصطفاة).

*****

الغريب، أنَّ مهاجراً قد أقام نظريته هذه وفلسفته الخاصة به، على أساس خبرته العميقة جداً بأسرار وقواعد علم أخبار آخر الزمان "الاسكاتولوجي"، الذي أعطاهُ كلَّ وقته لتعلّم أسراره ودراسة خفاياه، وجمع أدلته، وترتيب حوادثه، بعد أن تلقى البذرة الأولى من أستاذه الذي درّسه التاريخ.

فأعطاه هذا العلم الفراسة، وأكسبه الحيادية المميِّزة للحقائق، ودلّه على أهم مفاصل الخارطة المستقبلية للأحداث، وعلّمه على أبرز أسرارها، فكانت فلسفةً استقرائيةً استشرافية متينة، بلورتها وصقلتها رحلته الفريدة عبر الزمن إلى الغد.

فأصبح تماماً، كمن شاهد "**الحلقة الأخيرة**" من مسلسل تلفزيوني، كشف نهايته قبل غيره من المتابعين، لذا لم تَعُد تؤثّر فيه تفاصيل الحلقات الوسطى التي تسبق النهاية، ولا يتفاجأ بها.

هكذا هم من يملكون اليقين، وهم قلة نادرون، يستطيعون رؤية القادم بعين المشهود، فتُترجم أقوالهم إلى وقائع حقيقية.

ولم لا؟ ما دامت رؤيةً نَوْرانيةً تعتمد على فَهم الماضي، ومعايشة الواقع بلا زيف أو رتوش، ومعرفة سنن الله الماضية في الأمم والشعوب.

إنّ مَن يملك اليقين بمصير الغد، سيَسلَمُ من مطبّات الفتن، ومزالق الوهم، وخداع الشعارات البرّاقة، وشِباكِ الأحزاب الماكرة، فينجوَ من كل ذلك، وإنّ السعيد لَمَن جُنِّب الفتن، وتوقّى المكر والوهم والخداع.

فمن أراد أن يمتلك هذا السر، من غير أن يمر بمعاناة صديقنا مهاجرٍ – وهذا هو اللبيب الأريب – فعليه أن يقرأ ما بين سطور قصة مهاجرٍ، ليأخذ منها العبرة والدروس، التي ستغنيه عن مشاكل وقسوة التجربة.

إن التجارب والمشاهدات التي مر بها مهاجر جعلت منه شاباً عنيداً، يصعب التغرير به بسهولة، فتمرّد على كل ما لا يحترم عقله، مما نسج الأعداء حوله من الأساطير لإيقاع الشباب

لذا أصبح محارباً جَلداً في ميادينِ العلمِ والبحث عن كامل الحقيقة، ومحاربةِ مكائد التجهيل وإدارةِ الأفهام العالمية، وغسل الأدمغة، ثاقبَ النظرة، عاشقًا وَلِهًا للقراءة، شعاره: "ليس كل ما يلمع ذهباً".

لقد أكسبتهُ التجارب الواقعية حُبَّ المعرفة والبحث عن الحقيقة، فأكسبه ذلك فنّ صناعة الأسئلة، فصناعةُ الأسئلة فيها نصف العلم، والنصف الثاني في البحث عن أجوبتها، وبهذا صقل ذِهنهُ وطريقةَ تفكيره.

فتعلق بعلومٍ لم تكن من قبل تخطر له على بال، فأصبح يرى أن أهم علم يجب الاهتمام به الآن، والذي له أولوية الوقت، هو علم "الاسكاتولوجي"، لا أقول علم استقراء المستقبل، بل **(معرفة طرق استقراء ما يُحاك في كهوف الظلام، لأجل صناعة المستقبل).**

فَلَم يَعُد هذا العلم مجردَ استقراءٍ لسيناريوهات المستقبل، أو توقعاتٍ لنهاية العالم، بل أصبح صناعةً، يتمُّ الإعداد لها ممن يعتبرون أنفسهم صُنّاع الأحداث.

لذا لم يَدَعُ مهاجرٌ أيّ مصدر مِن مصادر الحصول على المعلومة، إلا وسعى إليه سعياً دؤوباً حقيقياً، فتعقّب مجالس العلماء ينهل من مَعينهم، وانكبّ على مواقع الانترنت، ومقاطع اليوتيوب، وصفحات منصات التواصل الاجتماعي، وشراء الكتب المتخصصة، وزيارة كل من يسمع عنه أنه يملك خبرة ما في علوم التنبؤات والمستقبليات، من علماء وباحثين وأكاديميين.

فتفتّق ذهن مهاجرٍ على مواضيع لم يكن يعلم عنها شيئاً من قبل، وبدأ يدرك أن هناك ما يسمى "**بالقوى الناعمة**"، و"**بالجيل الرابع من الحروب**" الأقل تكلفة للأعداء، و"**الحروب البيولوجية**" **و**"**بالحكومات الخفية**"، و"**الحركات الماسونية**"، و"**الجمعيات السرية**"، وبدأ يقرأ عن المخططات التدميرية، وخفايا إشعال الحروب، ونشر الفساد في الأرض، إلى آخر تلك المواضيع ويسجل ملاحظاته.

عندها، فهم مهاجرٌ أنَّ القُوى المتحكِّمة بالعالم، لديها استراتيجية مستقبلية، مبنية على العقيدةِ والنبوءة، وهي "**صناعة الأحداث والشخصيات**" التي من المفترض أنها ستظهر في

المستقبل بطبيعة الحال، فقاموا بتزييف ما يشابهها الآن، ليتعجّلوا نيل غاياتهم عن طريق خداع الشباب، بأنهم يجب عليهم اللحاق والانخراط في الأحداث الحالية، لكي يحجزوا لأنفسهم مقعداً فعالاً فيها، فيبيعونهم الوهم والسراب، ليكونوا حطب تلك الحروب والمخططات الاستراتيجية والدسائس المدمرة.

لقد اختلفت أحلام وتطلعات مهاجرٍ عن كلِّ أبناء جيله، لقد أصبح جُلُّ اهتمامه ومُناه أن يكون واحداً من أبطال أحداث نهاية الزمان، يحلم بالسفر إلى ذلك الزمان، الذي ستكون فيه الأحداث الحقيقية ؛ ليكون أحد أبطال ملحمة "مرج دابق" الشهيرة، التي جاء ذكرها في الأحاديث النبوية الشريفة، فهو يريد أن يكون أحد أبطالها ليحارب الاستبداد، ويسحق الظلم الذي تعرض له، والذي شاهده وعاينه في مجتمعه الكبير، يريد أن يهزم الظلم بجميع أنواعه ورموزه وشخوصه، وبكل أشكاله وأدواته وطرقه.

لقد تحوّل غضبه إلى طموحٍ، جعله يريد أن يفتك بكل ظالم ومتجبر وطاغية، مهما علا منصبه أو كثرت ثروته.

ولكن السؤال المباشر الآن: ما هي خططه في الوصول إلى المشاركة في الملحمة العظمى "**مرج دابق**"؟ وهل سيصل فعلاً إليها؟ وكيف؟ وأين سيساعده القَدَر؟ وهل سيلتقي بتلك الشخصيات التي قرأ عنها في الكتب؟ وأهم من ذلك كله، هل سينفعه صدق نيّته وطُهر سريرته؟

بقي أن نعلم أن مهاجراً له لقب عُرف به، فقد لقّبه الناس بـ"الزّمني" لشدة شغفه بأخبار آخر الزمان، خاصة الملحمة الكبرى، والحلم بالمشاركة فيها، فكان دائم الذّكر لها، حتى سُمّيَ بالزمني، فصار اسمه: "مهاجر الزّمَنِيْ".

*****

قال ﷺ:

(يَا ابْنَ حَوَالَةَ إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فَقَدْ دَنَتْ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَايَا وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ إِلَى النَّاسِ مِنْ يَدَيَّ هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ) .

رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم.

فما هي هذه الزلازل والبلايا والأمور العظام؟

الانطلاقات الصعبة...

كأغلب الشباب في مجتمعه، نجحَ مهاجرٌ في الثانوية العامة، واحتفى به أهله فرحين بنجاحه وتفوّقه.

وفي خِضمّ هذا الاحتفال واندماج الناس بفرحة المناسبة السعيدة، استفرد مهاجر بنفسه متخذاً ركناً بعيداً عن الناس، ليجلس بمفرده يُحدّث نفسه بحزنٍ يغلب على فرحه بنجاحه: يا له من نجاحٍ باهر، لي ولأبناء جيلي، ولكن هل تُرانا نجحنا في الزمن الصحيح؟ أم أن الزمن ليس له علاقة بتوقيت النجاحات؟

إذ كيف يكون ليوم نجاحنا معنىً وقيمةً، وفي نفس هذا اليوم يسقط المئات من القتلى الأبرياء؟ ومنهم من كان بالأمس زميلاً لنا، يجلس على مقاعد الدراسة معنا، فانتقل اليوم إلى عالم البرزخ، قتيلاً بلا ذنْب اقترفه، بَدَلَ أن يكون فرِحاً بنجاحه معنا؟ فلا أدري، هل فرحتُنا لم تكتمل، أم لم يكتمل نجاحُنا؟

تُرى من منّا الذي نجح على الحقيقة؟ فهُمْ ماتوا لأجل الوطن، ونحن نجحنا لأجل الوطن، فهل قمة النجاح من أجل الوطن هو الموت في سبيله، أم أن الموت أصبح بحدّ ذاته، قمة النجاح في هذا الوطن؟ يا لها من معادلة قاسية.

عموماً، يبدو لي أنها مواجهة مبكرة لجيلنا مع التحديات، وأيٌّ تحدياتٍ هي؟

فالأجيال السابقة كانوا يواجهون تحديات الحياة بعد تخرجهم من الجامعة، أمّا نحن فقد بدأنا مع الثانوية وقبل الجامعة، لابد أن هذا سيصقلُ شخصياتِنا، ويزيدُها صلابة، ويهبنا بصمة خاصة.

حسناً، هناك تحدٍّ آخر، لا أدري هل هو أقلّ احتداماً أم أكثر من سابقيه؟ إنه تحدي أحقية الاختيار، في الرغبة والتفاضل في التسجيل الجامعي، هل سيكون بحسب رغبتي أنا أم رغبة الأهل؟ خاصةً وأنني حائزٌ على مجموعٍ يؤهلني لدخول أي فرع من فروع كليات الطب، وهذه رغبة أهلي وغاية أمنيتهم، إلا أن لي رأيٌ آخر، فأنا لا أحب دراسة الطب، وأكره المختبرات

والتشريح ورائحة الأدوية، أنا لا أرى نفسي طبيباً، ولم يعد طموحي شخصيّ، بل أصبح تفكيري في مستقبل الأمة.

إن غاية أهداف جميع الأسر العربية، أن يدخل أبناؤهم كليات الطب، ليصبح أحدهم طبيباً، بغضّ النَّظر إنْ كان ناجحاً في مهنته أم لا، المهم عندهم أن يفتتح عيادة خاصة، فيصبح له في المجتمع قيمةٌ ووجاهةٌ مميزة – كما يعتقدون –، ويناديه الناس بلقب "دكتور"، (ذهب الدكتور عاد الدكتور قال الدكتور) وكأنها أغلى المقامات وأعلى الغايات في الدنيا، للأسف هذا هو الواقع الغالب، لقد أصبحت المهن والشهادات هي التي تُقيّم الإنسان، وليست القيمُ والمبادئُ ودرجةُ النفع.

ولكن من يهتم لرأيي؟ فنظرتي مغايرةٌ تماماً لمَا يُفكّر به جميع مَن حولي، وهدفي أبعد من أهدافهم، لذا سأرسم طريقي بِصمتٍ، وبحسب قناعتي وعقلي أنا، فالقادم هو زمني أنا وليس زمن والديّ، وحتى تكون خططي صحيحة، لابد أن أعرف أولاً ماهيّة الزمن القادم، وأبعاده وظروفه، ومن سيحكمني؟ وبأي عقلية سيحكمني؟ ومع أي نظام عالمي سنتعايش؟

*****

مع بداية الصيف، بدأت أولى خطوات مهاجرٍ العملية، حين أخذ في البحث عن فرصة عملٍ، ليوفّر من خلالها عائداً مادياً معقولاً، يساعده في انطلاقته إلى هدفه.

وفعلاً، فقد وجد مهاجرٌ عملاً مؤقتاً، في معملٍ لجمع الفواكه في برادات ضخمة، لتخزينها وإعادة تسويقها في الموسم المغاير، لبيعها بأسعارٍ مربحة.

التزم مهاجر بعمله، نشيطاً متقناً لتفاصيله، لا يتدخل فيما لا يعنيه من أمور ثانوية، أو أحاديث العمال الجانبية، تراه دائماً عميق التفكير، سكوتاً، مشغول البال، وكأنه يحمل هماً بحجم الجبال.

أما الخطوة الثانية، فكانت البحث عن إجابة لسؤال: ماذا بشأن المظاهرات والثورات القائمة؟ ما دوري بها؟

إنها الشغل الشاغل للشباب الآن؟ ويبدو أنها سترافقنا في حياتنا شئنا أم أبينا، لدرجة أنّها غيرت الحياة في بعض الدول،

ودُوَلٌ قد تغيرت الأنظمة فيها، ودولٌ يبدو أنها مقبلة على ما أصاب أخواتِها، فليس الأمر إذاً سحابة صيف ماضية.

لن يعود التاريخ إلى الوراء، ولن ترجع الأمور كما كانت، كل هذا واضح المعالم عندي، ولكن إلى أين نحن ذاهبون؟ ما هو مصيرنا المقبل؟ يبدو مجهولاً مرعباً بغموضه.

إنني أشعر بتناقضٍ مما يجري حولي، فمن جانبٍ أجد المطالب التي يصدح بها الشعب مُحقّة ولا ينكر أحقيتها أحد، ولكن هناك أمران غريبان: المسلك والاستثمار.

فالمسلك العام للمظاهرات ليس بالانضباط المفروض، وبعض الثورات التي انتهت، تم استثمارها من أعداء الثورة من غير أن تشعر الشعوب.

والأهم من هذا وذاك، أن هذه الثورات لا تقّدم البديل المطلوب، كمن قلع الأشواك من مزرعته وليس لديه أشجارٌ من زيتون أو عنب ليضعها مكانها، فعادت الأشواك لتنمو من جديد، كما أنها أشبه بمُصارعٍ هاجم خصمه كما قيل له، من غير أن

يعلم أنه إن هزمه فمَن سيكون بديلاً عنه، فيُستبدل المصارع بوحشٍ أقوى منه، فيُؤكل كما أُكل الثور الأبيض بعد الأسود.

فهل الثورات هي الأسلوب والأداة الأمثل والمتاح الوحيد لإيصال صوت الحق؟ وإزالة الباطل وأبواقه؟ وهل جلْبُ الحق محصورٌ بإقامة الثورات فقط ولا سبيل غيرها؟

وهل تُعتبر الثورة فوق مستوى الشبهات؟ أقصد هل للثائر عصمة من أن يكون فاسداً لمجرد أنه حاصل على "رتبة ثائر"؟ حتى وإن كان لا يعلم لماذا يثور؟ وماذا يريد؟ وكيف عليه أن يسلك سبل إنجاح ثورته؟ هل للثوار حصانة تحميهم من المحاسبة؟

المشكلة أن هذه الأسئلة تُزعج الثوار، ولا يرون فيها حق الطرح، فعندما تتحكم العواطف وتسيطر على العقول، يصبح المرء طاغوتاً مستبداً لا يختلف عمّن ثار ضدهم، فتصبح الثورة ثورة طاغوت صغير على طاغوت كبير.

إذاً متى سنناقش الهدف والغاية ونحن لم نعطِ للوسيلة أهميتها أولاً؟ هذه قضية يجب أن أحسم رأيي فيها قبل الخوض

في أي حراك جماعي ميداني، لابد أن أفهم كل شيء أولاً، وباختصار: هل الفساد يُصلح الفساد؟ طبعاً لا أقصد التعميم، ولكني أقصد من يستغلون الأحداث لغايات شخصية، وما أكثرهم!

حسناً، إن كان الأسلوب الثوري ليس هو الحل الوحيد لتصحيح المسار السياسي واسترجاع الحقوق المغتصبة من الشعوب، ومحاسبة الفساد المستشري في الحكومات، فما هو الحل إذاً؟

ثم أليست هذه الحكومات من هذا الشعب؟ أليس هؤلاء العسكر أو رجال الأمن هم من أبنائنا وأهلنا؟ لهم ما لنا وعليهم ما علينا؟! أليس من يدافع عن الطغاة إنما يدافع عن أشخاص ليسوا فوق المساءلة؟ بل بشرٌ مثلنا ليس لهم قدسية ولا عصمة، وهم من بدؤوا أولاً بنكث العهد الذي بينهم وبين شعوبهم، فطغوا وبغوا وسرقوا واستأثروا وغشوا الرعية ولم يعطوهم أدنى حقوقهم.

لو أردنا استبدال هذه الحكومات بأفضل، فإننا سنعود إلى استنساخ المستبدَلون بالمستبدَلين.

يا لها من أفكار وتساؤلات، لم تعد تجدُ عقلا واعياً يبحث عن إجابات هادئة لها، فضجيج الثورة وصخب شعاراتها العاطفية عطّلت العقول، وربما يصبح المفكر المتسائل عدواً لهذا الضجيج، وليس بعيداً أن يُخوّن ويُطالب بصلبه بتهمة "الخيانة العظمى" للثورة.

أو بتُهمِ نشر وباء التفكير، وتعاطي النظر الهادئ، ومحاربة هندسة التجهيل وصناعة الأفهام المُصندقة، فللأسف كنا أمة لا يُراد لها من خصومها أن تفكر، فأخذنا دورهم وأصبحنا نحن من نحارب مفكرينا بالنيابة عن الخصوم والأعداء.

*****

الفصل الأول

مرحلة الصقل

تمهيد..

مع بدايات ظهور الحراك الشعبي، وقيام المظاهرات "العفوية"، التي تنادي بحقوقها الجماعية التي تُقرها وتشرّعها جميع الأديان والأعراف الدولية، كان مهاجر من أوائل الذين شاركوا فيها، وبقناعة مترددة، بأنها ستحقق المطالب المنادى بها، وأنّ الحكومات ستراوغ في الاستجابة بتلبية تلك المطالب لهذه الشعوب الثائرة المقهورة.

لدرجة أنه قد نظّم مع مجموعة من رفاقه، بعض الفعاليات الثورية، ككتابة شعاراتهم على لوحات قماشية، لتعليقها في الميادين العامة، وحملها في مظاهراتهم، وكإنشاد بعض الأهازيج التي تحمل مضموناً سياسياً ثورياً، تُعبّر عن مطالبهم.

كانوا يجتمعون خِلسة، ويتفقون على فعالياتهم بسرية تامة، ويتنقلون بعيداً عن أعين رجال الأمن وأعوانهم، الذين كانوا معروفين للجميع.

كانوا يشعرون –كشباب بلا خبرة – بحماسٍ ثوري وهمّة عالية، وأنهم ودّعوا الصبيانية والمراهقة، وأصبحوا يقومون بأعمال بطولية هادفة، وأنهم يستطيعون نقل الجبال من أماكنها، ولا مستحيل يقف في طريقهم.

في هذه المرحلة المفصلية والهامة، كان مهاجر يمرّ بمرحلة تحديد مستقبله العلمي، وكذلك الأمة، كانت مع تلك "الثورات العربية" التي تشتعل في معظمها، هي أيضاً ترسم مستقبلها الجديد.

لقد التقى مهاجر مع الوطن بأنهما يمران في مرحلة تحديد المستقبل والمصير المجهول سويةً في زمن واحد، وبرغم اختلاف حجم التحديات بين مهاجر والوطن، إلا أنهما مرتبطان ارتباطاً تكاملياً، بمصيرٍ مشتركٍ واحد.

فالغموض الذي يلف بمصير مهاجر، هو أيضاً يلف بمصير الأمة، فما أن تهدأ ثورةٌ هنا إلا واشتعلت ثورةٌ هناك، وما أن يخرج مهاجر من تحدٍ ما، إلا وقد وقع في آخر، والغريب أن هذه الثورات تختلف في ظروفها عن بعضها، ففي بعض البقاع تتصف بالترف والرفاهية، بينما تجدها تنزف في مكان آخر،

لتغرق بالدماء والجثث، ويكثر فيها القتل والمجازر، فهل تختلف أسعار الإنسان من مكان إلى مكان؟ وهل تختلف فتاوى استحلال الدماء بين مذهب وآخر؟ وهل يتفاوت تقديس الطغاة بين مجتمع ومجتمع غيره؟ لا أدري.. يا لها من تناقضات غريبة؟

كان مهاجر مهتماً بشغفٍ بالغٍ جداً، بمعرفة جميع التفاصيل الدقيقة، والأحداث المستجدة لتلك الثورات، وتفاعل الناس معها، شعبياً وحكومياً، وردّات الفعل والتصريحات العربية والعالمية، والتطورات المختلفة والملفتة للنظر، على جميع الجبهات، وفي كل بلد فيه ثورة.

في البداية تأثر مهاجر بالثورات وانجذب إليها، ونظر إلى توهجها كما ينظر إليها أبناء جيله، بأنها الأسلوب الأمثل لنيل حقوق الشعوب، في حياة أفضل في أوطانهم.

ولكن بعد مرور أحداثٍ وتغيرات كبيرة، أصبح لمهاجر رأياً مختلفاً في هذه الثورات، لم يعد رأيه تقليدياً في تخيل دلالاتها أو نهاياتها، لذا أصبح قليل المشاركة اليومية في الميادين والساحات، التي تمتلئ بالثوار والصحفيين، أصبح أكثر تفكراً في

المآلات والنهايات، صار يعتقد أن هذه الثورات ستنقل الأمة إلى منعطف جديد، غير هذا الذي يقال في المنتديات الثقافية، واللقاءات الشعبية، والحوارات الثورية.

يسمعهم يحللون الثورات فلسفياً وتاريخياً، لكنه لم يعد يقتنع بذلك، لقد وجد أن أكثرهم عبارة عن أقلام مستأجرة، وأن الأقرب للحقيقة هو ربطها بعلامات وأشراط الساعة، وما يتعلق بهلكة أمم وشعوب مختلفة.

فكلما تفرّس في واقعها، ولاحظ كذب الإعلام العالمي الذي يدّعي الإنسانية ثم يسكت على المجازر البشرية، ولاحظ دجل الكثير من القيادات المزورة، وأنهم مجرد "مزاودين" يبحثون عن المال والشهرة، وجد فيها تناقضات غريبة، وأيدٍ خفيةٍ تقودها، وهنا بدأ يتساءل:

هل نحن في خدعة عالمية؟ هل هذا ما يسمى بالجيل الرابع من الحروب؟ وتلاعب القوى الناعمة في الخفاء، فقديماً كانت الحروب تكلف الأعداء الأموال والأرواح الباهظة، وبلا نتائج مضمونة، ولكن من خلال الجيل الرابع من الحروب، أصبح القضاء على الشعوب أسهلَ وبلا تكاليف تُذكر، فالمعادلة

تقول: حاكم مستبد وشعب مُجهّل مُغيّب، أشعِل فيه ثورة، وأدر عليهم نهراً إعلامياً مُحرِضاً، تحصل على دولة محطَّمة وشعبٍ مهجّرٍ بأقل التكاليف، مع ضمان عدم القيام على أرجلهم لسنوات طويلة.

إذاً هل ستُقمع هذه الثورات وينتهي مصيرها؟ أم ستنجح وتحقق شعاراتها؟ هل ستغير أنظمة الحكم التي ثارت ضدها أم ستفشل؟

كيف لثورة أن تنجح وهي بلا قائد مسدد الخطى، ولا طرح بديل توافقي ممكن؟ إذاً هي لا تتعدى عن كونها مجرد شعارات وتعبير عاطفي، ولكنها مع كل ذلك ستكون نقلة نوعية للأمة، لها علاقة بعلامات وأشراط الساعة.

إذاً ما الذي يريده مهاجر؟ بماذا يهتم؟ وماذا ينتظر؟ إلام يتطلع؟ وماذا يتوقع؟ وكيف سيتحقق من صدق أو كذب ما يشاع من أنها علامات آخر الزمان وظهور المهدي، وكل من تذكره الروايات من شخصيات أنهم في زمنه؟

*****

الدرس الأول..

بعد أن أنهى مهاجر عمله في معمل تجميع الفواكه، خطر بباله أن يزور أستاذه الذي درسه التاريخ في الثانوية، وكان يعلم أن له أبحاثاً خاصة في أشراط الساعة وأحداث آخر الزمان أيضاً، ليطرح عليه بعض الأسئلة التي يجد فيها حيرة نوعاً ما.

توجه مهاجر إلى منزل أستاذه الذي رحّب به أجمل الترحيب، فهو يعرف شغفه بالتاريخ، وكان بينهما جلسات ومناقشات طويلة لم تنته بعد.

وتحت ظل أشجار الزيتون التابعة لمنزل الأستاذ، جلس الأستاذ وتلميذه يحتسيان الشاي، ويتجاذبان أطراف الحديث، تارة عن التاريخ وتارة عن الواقع، وتارة عن المستقبل، والربط بين هذا وذاك، ليكون ذلك هو الدرس الأول الذي أثّر في فكر مهاجر، لينطلق من بعده مع تجارب أخرى ليكون فكره وفلسفته الخاصة به.

يسأل مهاجر عن الثورات السابقة التي مرت في التاريخ، عن أسبابها ونتائجها، وعن النبوءات وزمنها:

- أفكار كثيرة يا أستاذي شغلت بالي، واستفسارات عديدة لم أجد لها جواباً، نبوءات كثيرة قرأت عنها، لا أدري هل نحن نعايشها الآن أم لا؟ تتحدث عن المهدي، ونبوءات تصف رايات سوداء يحملها رجال يدعون إلى الحق وليسوا من أهله، أسماؤهم الكنى، ونسبتهم القرى، وشعورهم مرخاة كشعور النساء.

وها نحن نرى اليوم ونسمع عن شيء يشبه هذا، فكيف نربط بين هذه النبوءات وبين الواقع والمستقبل؟

- نربطها بفهم التاريخ أولا يا مهاجر.

- التاريخ؟ كيف يا أستاذ؟

- هل سمعت بقصة "وامعتصماه"، وبقول الشاعر أبي تمّام:

السيف أصدق إنباء من الكتب   في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

هل تعرف قصة القصيدة التي كان مطلعها هذا البيت ؟

- لقد سمعت بهذا البيت نعم، ولكني لا أعرف قصته.

– سأخبرك بالقصة: في زمن المعتصم بالله بن هارون الرشيد، أغار الروم على المسلمين أهالي مدينة "زِبطرة"، وأفسدوا فيها، وقام رومي بالاعتداء على امرأة مسلمة فصاحت مستغيثة: وامعتصماه، هذه الكلمة الشهيرة عند المسلمين اليوم.

ولكن الرومي سخر منها ومن استغاثتها، ولما وصل الخبر إلى المعتصم أقسم أن ينصرها ويأخذ لها حقها، وقاد بنفسه جيشاً عرمرماً سار به من بغداد إلى عموريّة لملاقاة الروم، فوقعت بينهما معركة عمورية الشهيرة في رمضان من عام 223 هـ / أغسطس 838م، انتصر فيها المعتصم بالله على القائد البيزنطي توفيل بن ميخائيل، وفتح عمورية وأسر ذلك المعتدي على المرأة وأحضرها لتراه بنفسها.

هذه هي القصة باختصار يا مهاجر، ولكن أين الشاهد منها؟ هل تعلم قبل أن يقوم المعتصم بهذه الغزوة، ماذا قال له المنجمون والعرافون والمشتغلون بالخرافات، ناصحون له؟

– ماذا قالوا له يا أستاذ؟

– لقد صدق فيهم ما قاله ابن خلدون في القرن الرابع عشر ميلادي: (عندما تنهار الدول يكثر المنجمون والمتسولون والمنافقون والمدّعون، والكتبة والقوالون، والمغنون النّشّاز، والشعراء النظّامون، والمتصعلكون وضاربو المندل، وقارعوا الطبول والمتفيهقون، وقارئو الكفّ والطالع والنازل، والمتسيّسون والمدّاحون وعابرو السبيل، والانتهازيون، وتتكشف الأقنعة، ويختلط مالا يختلط، ويضيع التقدير ويسوء التدبير، ويختلط الصدق بالكذب، والجهاد بالقتل..).

لقد قالوا له: إنه يجب عليه الانتظار حتى تظهر بعض الأمارات التي تسبق فتح عمورية، ومنها أن ينضج التين والعنب، لأنه لن يستطيع فتح عمورية قبل هذه العلامة، بالإضافة إلى ظهور علامة "نجم له ذناب" يظهر في جهة المغرب.

فانظر يا مهاجر إلى وعي المعتصم، إنه لم يستجب لهم ولتخرّصاتهم، ولم يتأثر بتنبؤاتهم، بل مضى مُتكلاً على من لا ناصر له إلا هو سبحانه وتعالى، ضارباً بتكهناتهم وتنجيمهم عرض الحائط، فتجهّز وغزا آخذاً بأسباب النصر، حتى نصره الله تعالى نصراً مظفّراً.

وعندما سمع أبو تمام الطائي أنشد قائلاً:

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتبِ	**في حدّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللّعبِ**
بيضُ الصَّفائحِ لا سودُ الصحائفِ في	**مُتُونِهنَّ جلاءُ الشّكِّ والرِّيَبِ**
والعِلْمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعةً	**بين الخَمِيسَيْنِ لا في السّبعةِ الشُّهُبِ**
أين الرواةُ بلْ أين النجومُ وما	**صاغُوه مِن زُخرفٍ فيها ومِن كَذِبِ**
تَخرُّصاً وأحاديثاً ملفَّقةً	**ليست بِنبْعٍ إذا عُدّتْ ولا غَرَبِ**
وخوَّفُوا الناس من دهْياءَ مُظلمةٍ	**إذا بَدَا الكوكبُ الغَربيُّ ذو الذَّنَبِ**
وصيّروا الأبراجَ العُليا مُرتبةً	**ما كان مُنْقلِباً أو غيرَ مُنقَلِبِ**
يقضون بالأمر عنها وهي غافلةً	**ما دار في فلك منها وفي قُطُبِ**
يا يومَ وَقعةِ عَمُّوريَّةَ انصرَفَت	**منكَ المُنَى حُفَّلاً معسولةَ الحلبِ**
أبقيْتَ جدَّ بني الإسلامِ في صعدٍ	**والمشركينَ ودارَ الشرْكِ في صَبَبِ**
لبَّيْتَ صوتاً زِبَطْرِياً هَرَقْتَ لَهُ	**كأسَ الكرى ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ**
عداك حرُّ الثغورِ المستضامةِ عنْ	**بردِ الثُّغور وعنْ سلسالها الحصب**

– وكيف نستخلص العبرةِ من هذه القصة اسقاطا على واقعنا؟

– اسمع يا مهاجر، النبوءة لها تأثير فعّال على أرض الواقع، يتأثر بها الناس ويتفاعلون معها، وربما نسجوا حولها عدداً من الخرافات والأساطير، فزادوا عليها وأنقصوا، كل واحد بحسب سعة خياله.

والمشكلة أننا لا نستطيع منع ذلك جماهيرياً، ولكننا نستطيع تأصيل المسائل علمياً.

الأهم من ذلك أن تعلم يا مهاجر، أن للنبوءات عند الغرب دوراً رئيسياً وفعالاً في رسم سياساتهم وحروبهم واستراتيجياتهم المستقبلية، إنها عندهم عقيدة راسخة، يقول "هال ليندسي": (إن دولة إسرائيل هي الخط التاريخي لمعظم أحداث الحاضر والمستقبل).

فالغرب بعكسنا في هذا المجال فنحن لا نعمل لتسريع أو إيجاد النبوءات التي عندنا، أي أنه ليس علينا واجب القيام بشيء حيال تعجيل ظهور المهدي مثلاً.

بينما الغرب فإنهم يعملون على ذلك من خلال العديد من الأمور، كإشعال الفتن والحروب، وافتعال الأوبئة والطواعين، واحتلال البلاد المستقلة كفلسطين، وذلك تمهيداً – كما يعتقدون – لقدوم الملك المُخلّص، كما يسمونه، ألم يقل تعالى في كتابه الحكيم:

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:64].

وبذلك هم مستعدون على أن يوجدوا أحداثاً أو شخصيات مذكورة عندنا نحن، وترويج ذلك إعلامياً ليوهموا الناس بأن هؤلاء هم المذكورون في التراث الإسلامي، الذين ننتظرهم، كالسفياني والمهدي والحارث الحراث والأصهب وغيرهم من الشخصيات، ويعملون على أن ما سيقع الآن من معارك هي تلك التي ننتظر حدوثها ومذكورة في كتبنا.

فأصبح الناس يتوهمون أن ما يسمى بـ"هرمجدون" هي نفسها الملحمة الكبرى، التي سيقودها المهدي من طرفنا، والمُخلّص من طرف الغرب، وهذا تدليس وكذب، وبأنها ستكون حرباً عالمية ثالثة يشارك فيها كل دول العالم، مع أنهم يقولون إن أرض معركة هرمجدون هي فلسطين، بينما أرض الملحمة الكبرى هي مرج دابق شمال سوريا.

مع العلم بأنه قد تكون بعض الأحداث الواقعة الآن مذكورة في الروايات حقاً، ولكن أكثر الناس لم يتنبهوا لها، لأن تأثير الإعلام وأبواقه مسلطٌ على روايات محددة يُراد أن يصدقها

الناس، ويتداولونها على أنها هي الواقع، وربما أخطأ بعض من يُحسب على أهل العلم متوهماً ذلك أيضاً، فينتشر الوهم بين الناس ويصدقه بعض الشباب الفارغ علمياً، أو المتحمس حماساً عاطفياً سلبياً، فيقعون ضحايا هذا التدليس والوهم الذي شارك فيه الناس من غير أن يقصدوا، فيقع الشباب في القتل والفتن ظناً منهم بأنه على خير وبأنهم في جهاد، بينما الحقيقة هم في فتن، وقد حدث هذا في أكثر من فترة في حياة الأمّة مؤخراً.

ومن أقوال منظرو الغرب التي تدل على مخططاتهم واهتمامهم بنبوءاتهم ما قالهليندسي أيضاً: (واستناداً إلى النبوءات فإن العالم كله سوف يتمركز على الشرق الأوسط وخاصة على إسرائيل في الأيام الأخيرة، إن كل الأمم سوف تضرب، وسوف تصبح متورطة بما يجري هناك، إن باستطاعتنا الآن أن نرى أن ذلك يتطور في هذا الوقت ويأخذ مكانه الصحيح في مجرى النبوءات، تماماً كما تأخذ الأحداث اليومية مواقعها في الصحف اليومية).

أما نحن يا مهاجر، فأولاً.. كُتُبُنا أصحّ من كُتُبهم، وبالتالي النبوءات التي عندنا أصح وأدق مما عندهم، لأنهم حرّفوا وبدّلوا فيها ونسجوا حولها الخرافات.

ونحن عقيدتنا بالنسبة للمهدي، طالما لم نرَ جيشاً يُخسف به في البيداء قُبيل مكة المكرمة، فلا نُصدّق أيّ شخص يدّعي أنه المهدي، كما أنه ليس علينا واجب أن نعمل على ظهوره.

وبالنسبة للملاحم والحروب، فأصلاً نحن مأمورون بالجهاد والاستعداد الدائم لكل حوادث الزمان، وليس الانتظار حتى يأذن المستقبل.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:60]

فلسنا مأمورين بالعمل على تحقيق نبوءة محددة بذاتها، بل نحن مأمورون بالإعداد الدائم لكل قوة تعطينا هيبة ومكانة عظيمة في قلوب الأمم.

– اليوم تعلمت درساً مهماً يا أستاذ، لقد لخصت لي التاريخ والواقع والمستقبل، أشكرك كل الشكر، ولي سؤال آخر، ماذا عن الرايات السود، كيف نفهم زمنها؟

– هذه سهلة يا مهاجر، ويكفينا فيها دليلاً واحداً، وهو واضحٌ كل الوضوح، فقد قال ﷺ: **(يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ، ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ: فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ). رواه ابن ماجة والحاكم.**

لاحظ ترتيب الحديث، اقتتال ثلاثة أبناء خلفاء، ثم تطلع الرايات السود وفيها المهدي، أليس كذلك؟

– بلى يا أستاذ، الترتيب واضح.

– حسناً فهل يوجد بيننا خلفاء اليوم؟ هل نحن في زمن الخلافة أم في زمن الملك الجبري؟

– نحن في زمن الملك الجبري، ولا يوجد خلفاء الآن بيننا.

– إذا أين هم أبناء الخلفاء، وأين هو الاقتتال الذي بين أبناء ثلاثة منهم، والذي من المفترض أن يكون هذا قبل ظهور الرايات السوداء؟ إذا هذه الرايات السوداء رايات مزورة ومصنّعة، وليست حقيقية، أليس كذلك؟

– بلى يا أستاذ ولكن هل معنى ذلك أن الخلافة ستعود مرة ثانية؟

– بكل تأكيد، ألم يقل النبي ﷺ:

(يَا ابْنَ حَوَالَةَ إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، فَقَدْ دَنَتْ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَايَا وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ، وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ إِلَى النَّاسِ مِنْ يَدَيَّ هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ)[6].

فأولاً.. الخلافة ستكون في الأرض المقدسة، في بيت المقدس، وليس في حدود بلاد الشام الغربية المشتركة مع حدود بلاد الرافدين، أليس كذلك؟

– بلى صحيح.

---

[6] أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم.

– ثانياً.. هو قال: "خلافة" وليس خليفة واحد، كما في حديث آخر قال ﷺ: **(كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ)**. رواه البخاري.

فقال: "**خلفاء فيكثرون**"، ونحن نعلم أن الخلفاء الراشدين

خمسةٌ مع الحسن بن علي رضي الله عنهم جميعاً، وقد قال النبي ﷺ: **(الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَضُوضًا)** رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم.

وهذه الخلافة الأولى، وقال ﷺ في حديث آخر: **(تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا شَاءَ، ثُمَّ تَكُونُ الْخِلَافَةُ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَاضًا فَتَكُونُ مُلْكًا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَرْفَعُهُ إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ سَكَتَ)**. رواه البزار والطبراني.

فدلّ على أن مراحل الحكم في الأمة هي: الخلافة الراشدة التي بعد النبي ﷺ وهم الخمسة، ثم ملك عاض، ثم ملك جبري، وهو ما نحن فيه الآن، ثم الخلافة الثانية والتي في تكملة عدد الخلفاء الذين قال عنهم في الحديث الأول **(سيكون خلفاء فيكثرون)** وآخرهم المهدي، لأنه يسلم الحكم بعد أن يكون خليفة لسبع أو ثمان أو تسع سنوات، للسيد المسيح ﷺ.

– إذاً كم عدد الخلفاء يا أستاذ؟ أي كم خليفة سيكون في مرحلة الخلافة الثانية، والذين يسبقون المهدي؟

– سيكون اثنا عشر خليفة يا مهاجر، بدليل حديث: **(إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْقَضِي حَتَّى يَمْضِيَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً.. كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ). رواه البخاري ومسلم.**

فذكر أنهم خلفاء، وأنهم اثنا عشر، وأنهم كلهم من قريش، فهل بقي لديك شك في مكان وزمان الخلافة القادمة، وما يسبقها من ظروف وما يلحق بها؟ والشاهد أنه هل ظهر هؤلاء الخلفاء السبعة بقية الاثني عشر خليفة، ونحن نحتاج إلى ثلاثة على الأقل حتى يقتتل ثلاثة من أبنائهم، كي نقول إن زمن

الرايات السود قد اقترب، بل وأوضح من ذلك هل ظهر جبل الذهب في نهر الفرات؟

– كلا لم يظهر بعد.

– إذاً فهذه علامة ثانية لم تظهر بعد أيضاً، فمن أين جاءت هذه الرايات السود؟ لابد أنها مزورة، صنعوها لخداع الشباب المسلم لكي يكونوا حطب الفتن التي يشعلونها.

– الآن اكتملت الصورة يا أستاذ، لقد وضّحت لي كل شيء.

– الوعي هو أهم ما يجب أن نتحلى به في هذا الزمن يا مهاجر، ففتنة "**صياصي البقر**" قادمة لا محال، وللأسف فأكثر المسلمين لا يعرفونها.

– وما فتنة صياصي البقر يا أستاذ؟

وقبل أن يجيب الأستاذ، وفي خِضمّ اندماجهما بالحوار المفعم بالمعلومات الجديدة والمهمة لمهاجر، ومن غير أن يشعرا، فجأة وجدا نفسيهما محاطان بعدد من رجال الأمن الذين يشهرون السلاح نحوهما، وأفزعتهما صرخات التهديد والوعيد والأوامر، بعدم التحرك أو اتخاذ أي تصرف.

وبكل هدوء من الأستاذ الذي تَعوّد على هذه المداهمات الفجائية، قال بصوت منخفض مخاطباً مهاجر، وبكل هدوء وثقة، همس له:

- لا تقلق يا مهاجر ولا تتحرك، إنه أمر اعتيادي بالنسبة لي، إياك أن تشعر بالخوف، للأسف "**أصبحنا لا نعرف العدل حتى في الظلم**".

وما إن أنهى عبارته، حتى قام رجال الأمن بإلقاء القبض عليهما مع ربط أيديهما إلى الخلف وتعصيب أعينهما، قابلها عدم مبالاة من الأستاذ، ومحاولات ثبات من مهاجر، مقلداً أستاذه ومطبقاً لنصيحته، بعدم القلق والخوف، متظاهراً بعدم المبالاة كأستاذه تماماً.

قام رجال الأمن برميهما في سيارة الأمن بخشونة وغلظة، وأخذهما إلى المركز الأمني، مع فصلهما عن بعضهما، وإدخال كل واحد منهما إلى مكتب تحقيق مختلف عن الآخر.

أما الأستاذ فهو يعرف تهمته الجاهزة، والأسئلة التي ستوجه إليه، والمدة التي سيقضيها عندهم ضيفاً مُهاناً، وأساليب

التعذيب الخفيفة – التي تناسب سنوات عمره السبعين – والتي سيذوقها عندهم، ثم متى سيخرج بعد كل ذلك، فلا احترام لشيبته، ولا تقدير لعطائه في التدريس وتخريج الأجيال على مدار نصف قرن من الزمان، فهو "زبون" دائم عندهم، كلما وجدوا أنفسهم بلا عمل، استدعوه بهذه الطريقة الإرهابية المهينة، ليتسلوا به.

وأما مهاجر، فهذه التجربة الأولى له مع الاعتقال، ولم يخطر بباله مسبقاً أنه سيقف في هذا الموقف يوماً ما، بل لم يكن يعلم أن أستاذه قد سبق وأن تم اعتقاله من قبل، أو حتى من الممكن أن يُعتقل مُرَبٍّ كبيرٌ مثله، ومع ذلك فقد حافظ على توازنه وهدوئه النفسي، وأخذ يشعر بثقة زائدة ورغبة في أن يعرف ماذا يريدون منه، فهذا أول احتكاك مباشر له مع رجال الأمن.

في مكتب التحقيق، وقبل أن يرفعوا قماشة سوداء غطّت عينيه المتقدتين ذكاءً وبراءةً، ما كان يعلم قبلها بأنها بهذه القسوة والإهانة، كانت لكمة على ركبتيه من الخلف هي أول لكمة يذوقها مهاجر في حياته من رجال أمن بلده، واخوته في الوطن، جعلته يتهاوى إلى الأرض سريعاً، وكأن عامود العَلَم الذي في مدرسته الثانوية، والذي طالما رفعه في كل صباح مع موسيقى

النشيد الوطني، قد كُسِر من تحت، ليهوي العَلَم أرضاً مثله الآن، ولكنه بكل ثبات وثقة، يتناول العَلَم قبل أن يسقط إلى الأرض، بإصرارٍ بطولي، قاوم تلك الركلة الجائرة، وبمجرد ما انثنت ركبتاه أعادهما ليقف صامداً، أمام أول موقف يشعر فيه بتحدٍّ يمسّ كرامته، ولم يتأوه، وكأن شيئاً لم يكن.

مما أثار غضب صاحب اللكمة أكثر، الذي شعر بأنه خسر معركة البطش الظالمة، فثنّى بلكمة على ظهره بِغيظٍ حانقٍ مع صرخةِ المهزوم المقهور، مُوجهاً السؤال لمهاجر:

– أيها الوغد.. يبدو أنك معتاد على هذه اللكمات ها؟ تتصنع الشجاعة أم فقدت الإحساس من كثرة ترددك على السجون أيها المجرم؟ هل "تمسحَ" جلدك؟ (ثم دفعه إلى الأرض ليرضي غروره).

نجح مهاجر بالوقوف على قدميه بعد عدة محاولات شجاعة، لأنه مازال مربوط اليدين إلى الخلف، متحدياً الخوف ومعركة التلاعب بالأعصاب، وكأنه فعلاً صاحب خبرة كما اتهمه رجل الأمن الذي ضربه، ثم بدأ التحقيق:

– ما اسمك؟

– مهاجر.

– بسخرية: مهاجر من أين إلى أين؟ (يضحك المحقق بصوت عالٍ مستفز، مع صمتٍ من مهاجر، ثم يكمل المحقق): أين تسكن؟

– خلف مسجد الصحابة الكبير، في حي الورود.

– كم عمرك؟ وماذا تعمل؟

– عمري عشرون سنة، وأعمل في معملِ جمعِ الفواكه للتبريد والتخزين.

– ما علاقتك بالأستاذ؟

– إنه أستاذي في الثانوية، وكنت في زيارته زيارةً ودية.

– ممم، ودية ها؟ وماذا بشأن المخطط الذي تشتركون فيه مع بقية الجماعة الإرهابية؟ اعترف خير لك، فقد ألقينا القبض على الجميع واعترفوا بكل شيء، والانكار لن يفيدك.

– لا أعرف عمَّ تتحدث ولا عن أي جماعة، أنا لا ولم أنتمِ لأي جماعة في حياتي.

وعلى هذا المنوال الاعتيادي والمستفز، كان حوار التحقيق، أسئلة مكررة وأجوبة محددة مختصرة، لم يكونوا جادين في الحديث عن هذه المجموعة المختلقة، كانت مجرد حجة، يرونها استباقية ضرورية من وجهة نظرهم، للاستمرار في فرض الهيمنة والرهبة في قلوب الناس، لكيلا يفكروا بعمل جماعات حركية، ولا يهمهم إن ظلموا فيها أحداً أم لا.

انتهى الحوار مع مهاجرٍ بالتظاهر بالاقتناع من محقق مكتب الأمن، بأنه لا علاقة لمهاجر بأي جماعة، وهذا التظاهر من باب الاحتياط فقط، لأنهم لم يكونوا يريدونه أصلاً، ويعلمون أن قدر الله تعالى هو الذي جاء به إليهم، حيث كان – من سوء حظه – في توقيت المداهمة في منزل الأستاذ، ولا شيء أكثر من ذلك.

ولكنهم لا يستطيعون إخراجه على الفور من غير أن يضيّفوه شيئاً، مما عندهم من أصناف اللكمات الخفيفة التي لا تترك أثراً على جسده، كتذكار له في المستقبل، حتى لا يفكر في

الانضمام إلى جماعة ما، أو القيام بأي عمل يزعجهم، ولكن رُبَّ ضارّةٍ نافعة، فهذه التجربة عرّفت مهاجر على أمور لم يكن يعرفها من قبل.

خرج مهاجرٌ وفي داخله شعورٌ استثنائيٌ بأنه أصبح بطلاً، وأنه أصبح صاحب تجربةٍ في الاعتقال السياسي، وأنه نجح في الثبات أمامهم، وأنه لم يشعر بالخوف أو الرهبة، بل حتى لم يتأوّه وجعاً من الضربات التي تلقاها، وصَبَرَ صبْر الأبطال الشجعان.

ولكنه وسط هذا الشعور بالانتصار، تذكّر فجأة الأستاذ، ترى ما الذي جرى معه؟ ولماذا اعتقلوه أصلاً؟ وهل هي أول مرة؟ أم أنه معتاد على ذلك؟ وما مصيره في هذه السنّ المتقدمة من العمر؟

نعم، نعم، تذكرت، لقد قال لي إنه أمر اعتيادي بالنسبة لي، ثم حذرني من الشعور بالخوف والقلق، ولكن متى اعتقلوه من قبل؟ ولماذا؟ لم أسمع بذلك من قبل، عموماً لابد أنه سيخرج وأعرف منه كل شيء.

هكذا، وتمرّ الأيام سريعةً مليئةً بالأحداث، فبعد مرور أكثر من أسبوع على حادثة الاعتقال، ازداد قلق مهاجر، وتملكته رغبة في معرفة مصير أستاذه، وبكل براءة وعفوية قرر زيارة أستاذه في المعتقل، وأخذ ما تيسر له من فاكهة وطعام ليتسلى بها أستاذه في سجنه.

وصل مهاجرٌ إلى المركز الأمني حاملاً معه أكياس الطعام والفواكه، وعند باب المركز الأمني أوقفه رجل أمن مستفسراً عما يحمل في الكيس، وعن سبب مجيئه إلى المركز.

وبكل عفوية أجاب مهاجر بأنه جاء لزيارة أستاذه للاطمئنان عليه، وأنه يحمل له الفاكهة، مما أثار استغراب وضحك رجل الأمن بسخرية، ثم أخذ منه الكيس وفتشه، ثم جرّه من ثيابه بخشونة ممزوجة بالاستهزاء به، إلى داخل المركز، ثم تقدم نحو الضابط مؤدياً التحية، ثم أخبره بما حدث في الخارج، فقام الجميع بالضحك بأصوات عالية.

بينما ذهل مهاجرٌ واستغرب من هذه السخرية وهو لا يفهم أسباب هذا المهرجان الممتلئ بالتهكم والاستهزاء منه، حتى

قطع عليه استغرابه صوت المحقق ذاته الذي لكمه في المرة السابقة:

– بغضب واستهزاء: هل أنت غبي أم تتغابى؟ أم أنك جئت لتسخر منا وتستهين بهيبة رجال الأمن؟ (مستدركاً بسرعة): أم أنك تظن في نفسك الشجاعة الكافية لتتحدانا؟ (ثم صرخ قائلاً): هيا تكلم قبل أن أعلق مشنقتك الآن أيها الوغد.

– بعفوية وسذاجة: لا هذا ولا ذاك، كل ما في الأمر أني جئت لأطمئن على الأستاذ وأسأل عن موعد خروجه ولماذا تأخر وما هي تهمته؟ وهذه بعض الفاكهة أحضرتها له ليتسلى بها في سجنه، ولا أدري إن كان ما فعلته ممنوعاً بالقانون، هذا كل ما في الأمر.

– (مقاطعاً): أيها الوغد أنت بحاجة إلى استضافة عندنا لتتعلم كيف تكون هيبة الأمن، (موجهاً كلامه لعناصر الأمن): خذوه إلى القبو في الأسفل، وقوموا بالواجب معه، هيا بسرعة.

ويقوم على الفور ثلاثة من أفراد الأمن بجره وإخراجه من مكتب المحقق، ثم بسحبه عبر الأدراج إلى الأقبية التي في

الطوابق السفلية تحت الأرض، حيث الزنزانات التي تمتلئ بأدوات التعذيب المختلفة.

يتهاوى مهاجرٌ على الأدراج بين يدي رجال الأمن بسرعة، لم يشعر كيف تجاوبت معه قدماه بهذه السرعة في النزول، وأصوات تأوهات وصرخات تعلو من الزنزانات، فيملأ صداها المكان، الذي تنتشر فيه الروائح المنتنة، كأنها في مكبّ جيف الحيوانات الميتة.

تمرّ أيام الصيف وشهوره الحارّة ببطء شديدٍ مملٍ، يذوق فيها مهاجر شتى أنواع التعذيب، لا يعرف الليل من النهار، لا يرى الشمس ولا نورها، أيامٌ عصيبة لم يخطر بباله أنه يوجد في الكون هكذا أمكنة، يمكن أن يتواجد فيها الإنسان الحر في وطنه.

في الخارج، كان أهل مهاجرٍ لا يعلمون عنه شيئاً، بحثوا عنه في كل الأماكن، في المستشفيات والسجون المدنية، أرسلوا صوره للجرائد والمجلات، نشروها على منصات التواصل الاجتماعي، ناشدوا المنظمات والهيئات الإنسانية، بحثوا في أسماء المعتقلين جرّاء الثورات، لم يتركوا باباً إلا وطرقوه، حتى

أصبحوا يسألون – على الأقل – عن جثته إن كان مقتولاً، ولكن، لا حياة لمن تنادي.

على صعيد آخر، وفي هذه الأثناء، كانت الجامعات قد أغلقت أبواب التسجيل، وبدأ العام الدراسي الجديد، وبدأ الطلاب يرتادون جامعاتهم التي قُبلوا فيها.

في داخل الزنزانة، وبعد انتهاء مرحلة الحبس الانفرادي، وانتهاء الضيافة التي أمر بها المحقق زبانيته أن يُذيقوها لمهاجر، تم نقل مهاجرٍ إلى الزنزانة التي سجن فيها الأستاذ، وكانت هذه النقلة، حركةً مدروسةً من المحقق في وضع مهاجرٍ في نفس الزنزانة، ليُراقَب مهاجرًا وأستاذه، لأنه ظن أنه ربما لم يأتِ مهاجر يوم جاء مدعياً الزيارة، إلا ليتلقّى أوامر أو معلوماتٍ من أستاذه، ليقوم بها في الخارج مع بقية أفراد جماعتهم، من باب التأكد فقط.

ولكن بعد مراقبة عدة أشهر، لم يستطع المحقق وزبانيته من تسجيل حديثٍ واحدٍ مُهم بينهما، يمكن أن يُؤخذ عليهما كدليلٍ ضدهما، أو يُفهم منه على الأقل قصدهم ومخططاتهم، فقد كانت أحاديثهم أكثرها عن التاريخ القديم، وعن أشراط الساعة

والمستقبليات، وكأنهما في حصصٍ مدرسية، عن المستقبل والتاريخ، بين أستاذ وتلميذ.

عندها قرر المحقق الإفراج عن مهاجر، بعد أن قارب من الشهر السابع في حبسه، وكانت آثار الكدمات والتعذيب التي مورست معه قد ذهب أكثرها، وعاد إلى مستوىً يستطيع فيه الخروج من غير أن يُثير بلبلة إعلامية ضدهم، خاصةً وأن قضية اختفائه أصبحت قضية رأيٍ عام.

استدعى المحقق مهاجراً، وأخبره أنه سيتم الإفراج عنه الآن، ثم حذره من الحديث عما جرى له، وإلا سيقومون بإعادة حبسه إلى الأبد.

وما هي إلا لحظات حتى بدأ يستنشق هواء الحرية، وهو لا يكاد يصدق أنه أصبح حراً، بعد أن أمضى أشهراً لا يعلم بحاله فيها إلا الله عزّ وجلّ.

أُخرج مهاجرٌ من باب المركز، الذي كانت آخر مرة رآه فيه حين جاء زائراً يحمل كيس الفاكهة من سبعة أشهر، شريطُ ذكرياتٍ مرّ بسرعة في ذهنه كلمحة بصر، وكل علامات الذهول

على وجهه، هل كل هذا حلمٌ أم حقيقةٌ؟ والدمعة ترغرغ في عينيه، تصارع النزول على خدّيهِ، تلمع كالنجوم حين تتلألأ في السماء، تملآن الأحداق، لا حزناً ولا ندماً، ولكن ألماً من قسوة الظلم، فلقسوة الظلم ألمٌ لا يوازيه أيّ ألم.

وصل مهاجر إلى بيته، فكانت المفاجأة التي لم يكن يتوقعها هو، ولا أهله أيضاً، ولكلٍ منهما سببه.

فما إن دخل بيته والتفت إليه والداه وإخوته، حتى علا صراخ الجميع: مهاجرٌ عاد!؟

واختلط الصراخ مع الزغاريد، والضحك والبكاء، وارتفعت هتافات التكبير والشكر لله تعالى، لقد كانت مفاجأة غير متوقعة، لأنهم كانوا قد فقدوا الأمل في عودته، وانتابهم اليأس، واعتبروه ميْتاً، فلم يكونوا يعلمون بأنه في أقبية أحد الفروع الأمنية، ولم يكونوا يعلمون أصلاً قصة تلك الزيارة والفاكهة والأستاذ.

وكذلك لم يكن مهاجر يعلم أن أهله قد ملؤوا الدنيا بحثاً عنه، وأن جميع أهل الحي بل والمدينة يعلمون بقصة اختفائه.

وهكذا، وبعد أن انتهت أيام الاحتفال بالعودة، من غير أن يدلي مهاجر بتفاصيل غيابه، فقط تحدث بأنه كان مسجوناً في ذمة التحقيق بقضية لا علاقة له فيها، وتم الافراج عنه بعد أن ثبتت براءته، ولم يحاول من حوله إلقاء المزيد من الأسئلة على مهاجر لمعرفة الحقيقة والتفاصيل، فمِن خائفٍ ومِن مُحرَجٍ، لا يريدون أن يُكثروا عليه الأسئلة لكونه مرهقاً، بعد خروجه من حبس طويل.

*****

بدأ مهاجرٌ العودة إلى حياته الطبيعية تدريجياً، رافعاً شعار: نحن نحيا بالأمل والعمل، لا نعرف اليأس ولا الخوف ولا الخنوع، نحن خُلقنا في دنيا الابتلاءات والفتن، نحن مستعدون للتحديات والمصاعب، نحن الشباب نحفر المستقبل بأظفارنا ونصنع المعجزات بسواعدنا، ولن يرعبنا الاستبداد ولا المستبدين.

لقد اكتسب مهاجرٌ وعياً ولغةً وفلسفةً جديدةً في تجربة السجن، لم يكن يمتلكها من قبل، لقد حوّلته التجارب إلى شخص

جديد، لقد صقله السجن وخشّنه التعذيب، فجعله يبدو وكأنه في الستين من عمره.

قرر مهاجرٌ الذهاب إلى المعمل ليتسلم بقية حقه عن أيام عمله، ثم إلى الجامعة ليرى مدى استطاعة التسجيل في كلية التاريخ لتكملة دراسته.

وفي صبيحة أحد الأيام، ذهب إلى المعمل ليأخذ راتبه الذي كان مستحقاً له قبل السجن، حيث إنه لم يتسلم راتبه وقتها لمدة شهرين متتاليين، وعندما قابل المسؤول عن الرواتب، أنكر أن له شيئاً في ذمتهم، فحاول مهاجرٌ تذكيره وطلب شهادة العمال، لكن المسؤول رفض كل ذلك وقام بالإساءة إلى مهاجر معيّراً إياه بأنه سجين سابق وأنه لا يشرفه أن يعمل لديه سجينٌ سابق، وأمره بالخروج من المعمل مهدداً إياه إن حاول العودة إليهم أن يشتكي عليه لذات المركز الأمني الذي كان به.

خرج مهاجرٌ متفاجئاً من تصرف المسؤول وإنكاره حقه، ثم تذكر أن المحقق توعده وأخبره بأنه مراقَبٌ، وأنه سيبقى ذليلاً مُضيّقاً عليه، حتى يُثبت حُسن سيْره وسلوكه خارج السجن، فربط مهاجر ذلك التهديد بتصرف هذا المسؤول في المعمل، وسار

حزيناً وقد ضاقت في وجهه الدنيا الرحبة، لما داخله من شعور بالقهر والمراقبة.

ثم توجه إلى الجامعة، لينظر في أمر مستقبله الدراسي، ومدى إمكانية التسجيل في الفصل الدراسي الحالي أو الثاني، والعودة إلى مدرجات الدراسة.

وصل إلى الكلية التي كان والده أخبره أنه سجل له فيها في وقت غيابه، على أمل عودته يوماً ما، فدخل على الموظف المسؤول، وسأله عن أوراقه وتسجيله، لكن الموظف كان كأنه نسخة متطابقة من مسؤول المحاسبة المالية في المعمل، وكأنه هو نفسه، أو كأنهما قد تلقا أوامرهما من شخص واحد.

نفس الرد، نفس القسوة والغِلظة، نفس الإنكار بأن له أوراقاً عندهم، نفس التهديد بمحاولة التفكير بالعودة والرجوع إليهم ثانية.

فَهِمَ مهاجرٌ القصة، وزالت شكوكه، لم يناقش هذه المرة، فقد تأكد أن كلام المحقق كان عملياً، وأن الأوامر خرجت في التضييق عليه علمياً وعملياً ومعيشياً.

بل مع مرور الأيام، علم أن التضييق قد طال جميع أفراد أسرته، من غير أن يفهموا لماذا؟ مستغربين من إغلاق جميع الأبواب في وجوههم، هل هو نحس مفاجئ؟ أم هو حسد طالهم؟ أم تراه سوء حظ؟ هم لم يفهموا شيئا.

ولكنَّ مهاجرًا فهم الأمر، إلا أنه لم يكن يستطيع التصريح بالأسباب الحقيقية التي تختفي وراء ما يجري لأسرته بسببه.

حيرةٌ كبيرة، وضِيقٌ خانق، ويأسٌ شديد، بدأ يتملك مهاجرًا وأهله، الديون بدأت تتزايد عليهم، حصار اقتصادي قاسٍ، لكن ما تسلل إلى قلب مهاجرٍ من ألَمٍ كان أكثر مما يشعر به أهله، لأنه شَعَر بأنه هو السبب الذي جلب لأهله هذا الضيق وهذا النّحَس، فصار يلوم نفسه على ذلك.

متناقضات المشاعر تتسابق في الاستحواذ على قلب وعقل مهاجرٍ، شياطين الإنس والجن تشير عليه بأشياء، همٌّ لا يستطيع البوح به، مراقبةٌ ضيّقَت عليه تحركاته، رفضٌ في أي مكان يلجأ إليه، أصبح يشعر وكأنه في سجن كبير بدأ يضيق عليه، يشعر بأنه مكبلاً عاجزاً عن الحركة.

قرر مهاجر أن يلجأ إلى والده، ليشكوَ له همه، ويشرحَ له تساؤلاته وحيرته، ليسمع منه ما يشفي غليله ويطمئن قلبه.

*****

الدرس الثانـي (في حضرة الوالد)..

من عادة والد مهاجر أن يجلس بعد العصر في حديقة المنزل بين الأشجار، فهذا موعد القراءة عنده، يقرأ من كتاب الله تعالى ما تيسّر، ثم يقرأ في الكتب التي تزيد من ثقافته، فهو مثقف ثقافة واسعة، سنوات عمره التي تجاوزت الستين عاماً، مع شغفه بالقراءة منذ شبابه أكسباه خبرة في مواضيع مختلفة.

صحيح أنه لا يحمل شهادة جامعية، لكن ثقافته تفوق من يحمل شهادات في تخصصات مختلفة، ولا يمرّ يومٌ إلا ويقرأ فيه كتاباً ثم يسجل ملاحظاته ويناقش أفكاره وأدلته باهتمام بالغ فهو لا يقرأ لأجل القراءة فقط، بل له على كل كتاب تعليقات وملاحظات وفوائد.

النهارُ في الصيف طويلٌ بعكس نهار الشتاء، فهو يستوعب – زمنياً – فوق القراءة أعمالاً أخرى، لاحظ مهاجرٌ أن والده انتهى من قراءته اليومية ومن تدوين ملاحظاته في كراسته،

فاقترب منه وألقى عليه السلام وجلس، بعد أن أخبره بأن لديه بعض التساؤلات المحيّرة، رحّب الوالد بهذه المبادرة بكل اهتمام.

فمن النادر أن يلجأ الشباب إلى آبائهم في الأزمات لأخذ النصح والمشورة، فبالعادة هم يُفضّلون مشورة أصدقائهم، ولا يقتربون من الآباء إلا ما ندر، ربما خشية التوبيخ أو الانتقاد، وربما لأسباب أخرى.

– مهاجر: في الحقيقة يا أبي كثيرة هي المواضيع التي شغلت بالي، ولا أعرف من أين أبدأ؟ هل أبدأ من شعوري بالألم مما نمرّ به من الضيق الذي سببته لكم؟ أم من حيرتي بما تمر به الأمة من تحولات تهدد مستقبلنا؟

وأحياناً يا أبي يوسوس الشيطان في عقلي ، فيثير فيه سؤالاً مخيفاً: أين الله من كل ما يجري من ظلم وبطش؟ ومن معاناة المستضعفين من النساء والولدان والشيوخ؟ لماذا لا ينصرهم؟

– (يبتسم الأب ابتسامة هادئة رزينة): أولاً يجب أن تعلم يا ولدي أننا عيش في دنيا المكابدة والابتلاءات والفتن، وما من

إنسان إلا وسيمرّ بهذه الثلاثية الاختبارية، فهي ما يميّز الحياة الدنيا عن الحياة العليا، حياة الاختبار والامتحان عن حياة اقتطاف الثمرات وإظهار النتائج، حياة المرور عن حياة الخلود. وأنت يا مهاجر بفضل الله تحفظ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَد ﴾ [البلد:4]

وتعلم أن الإنسان لابد أن يتعرض للفتن ليثبت إيمانه لكي يكون حجة له يوم القيامة، ألم يقل تعالى:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون﴾ [العنكبوت:2]

وأُذكّرك بأن الإنسان مُعرض للابتلاء أيضاً، ولكن الله تعالى قد رزقه أدوات التعامل مع الابتلاء فجعله سميعاً بصيراً، قال تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان:2]

ولا تنسَ أن الإنسان لا يعلم أين الخيرة ، هل هي فيما يظهر له أنه خير؟ أم فيما يظهر له أنه شر؟ فكلاهما فتنة له، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُون﴾ [الأنبياء:35]

وكذلك يُقلّب الله أحوال الناس فيبتليهم ليظهر معدن المجاهدين الصادقين من المدّعين الكَذَبة، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُم﴾ [محمد:31]

وليس فقط بالجهاد، بل كل متاع الدنيا وحطامها معرّضٌ أن يمرّ الإنسان بابتلاء فيه، كالأمن والطعام والأموال والأنفس وغيرها، ألم يقل سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين﴾ [البقرة:155]

انظر ماذا طلب في آخر الآية، قال: فبشر الصابرين، الذين رضوا بقضاء الله وقدره: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعون [156] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُون﴾ [البقرة:156-157].

والآن وقد علمت أن الإنسان لابد مُبتلى ومُفتتن، فاعلم أن النبي ﷺ قال: **(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ)**. **رواه الإمام أحمد وغيره.**

فالابتلاء له علامة تشير إلى المحبة الربانية، أليس هنيئاً للمبتلى بهذه الإشارة؟ ولكن المبتلى الصابر وليس الجزِع.

– جزاك الله خيراً يا والدي، هذا درس لن أنساه ما حييت، لقد تعلمت منك أن الامر كله بيد الله تعالى، وأن الإنسان إذا ابتلي عليه أن يصبر، وعليه أن يكون واعياً يقظًا من أن يقع في شباك الفتن.

– هل تعلم ما الفرق هنا بين الفتنة والابتلاء يا مهاجر؟

– كلا، أخبرني يا أبي.

– الابتلاء كالقضاء والقدر، يأتيك من غير أن يكون لك يدٌ فيه، فمثلاً قَدَر هذه الأمّة أنها مبتلاة، فالابتلاء من الله تعالى ليختبر إيمانك، فهذا يحتاج إلى صبر.

أما الفتن فقد تأتي من الشيطان: ﴿يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف:27]، وقد تأتي من الإنسان: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:20].

وهنا المطلوب منك هو تجنّب الفتنة، وتجنبها يكون بمعرفتها، ومعرفتها يكون بالاتكال على الله تعالى ثم بالعلم والوعي، أن تكون من أولي الألباب الخالصة الصافية، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:18]، وقد قال ﷺ: **(إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا).**

وكان سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: (هذه فتن قد أظلّت كجباه البقر، يهلِك فيها أكثر الناس، إلا من كان يعرفها قبل ذلك).

يا بني، **إن صناعة النبوءات هي نتيجة عملية لهندسة التجهيل وإدارة الافهام وغسل العقول**، وأما أولوا الألباب فلا

يغترّون بالشعارات وزخارف القول، ولا بالعواطف ووساوس شياطين الإنس والجن، إنما هم الخُلّص الذين يرون بنور الله تعالى.

يا بني، اعلم أن النبوءات لا تنفك عن السياسة، بل إن السياسة – عند الغرب – ما هي إلا أداة لتحقيق النبوءات.

والإنسان بطبعه يتملكه الفضول لمعرفة أسرار الغد واستشراف المستقبل، وجميع مستضعفو الأرض يحلمون بالمهدي أو المخلّص، فاعلم أن لهذه الأحاديث سحرٌ عندهم، وكأنه يُخدّرهم وينسيهم متاعب الدنيا ومشاكلها، **فالهوس بالنبوءات أفيون جديد، يخدر العقول ويدغدغ العواطف.**

لذا فإنَّ ما يقومون به من دسائس ومخططات تبَعاً لنبوءاتهم، ما هو إلا من أجل عيون جميلة الجميلات، وقدّيسة القديسات، بهيّة الملامح، وكاملة الأوصاف.

ومَن غيرها؟ مالئة القلوب، وآسرة العقول، وشاغلة أهل الأديان، وبركة الله للعالمين، عروس الأرض المقدسة، منذ أن كان اسمها أورشالم ويبوس وإيلياء، ثم أخيراً: القدس.

مَن غيرها محط أنظار الأحداث العالمية؟ منذ أن كانت أولى القبلتين، إلى أن ستصبح يوماً ما، آخر عواصم الأمم، ومركز صراع الأديان، ومهبط نبيّ المحبة والسلام، السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

لذا هم يعتقدون: (إنها الخط التاريخي لمعظم أحداث الحاضر والمستقبل)، و (أن ما بقي من الدنيا مبرمج حولها، وحول عودة المسيح عليه السلام)[7].

*****

وفي وسط هذه المشاعر المتناقضة، وهذه الظروف الاستثنائية، وبينما مهاجر في المسجد يهمّ بالخروج بعد أداء فرض صلاة العصر، إذ بصديق قديم يلقي عليه السلام، في البداية لم يكد أن يعرفه:

- مهاجر؟

- نعم مهاجر، تفضل، من حضرتك؟

[7] القس التبشيري سايروس سكوفيلد، صاحب: "الكتاب المقدس المرجعي" أحد قيادات الحركة التدبيرية.

– نسيتني؟

– يتفرس وجهه فيتذكر: آآه.. لالا، (يبتسم): الرفيق مراد، تذكرتك، سبحان الله كيف تغيرت! لقد كنت بلا لحية، بل لم أركَ يوماً في المسجد من قبل، ما الذي تغير بك وغيّرك؟ ولماذا تطيل لحيتك كل هذا القدر؟ وثوبك قصير جداً و ...

– مقاطعاً: تمهل، تمهل عليّ يا مهاجر، ما بال أسئلتك كثيرة؟ (يضحك) ثم لو سمحت قل لي: الأخ مراد ولا تقل الرفيق.

– (ضاحكاً باستغراب): في الحقيقة مستغربٌ مما أرى، لم أكن أتوقع يوماً أن أراك هكذا، تعال نجلس ونتحدث لأعرف ما الذي غيّرك هكذا.. يا أخ مراد.

يخرج الاثنان من المسجد، يتوجهان نحو منزل مراد، يتجاذبان أطراف الحديث وبعض الذكريات، يضحكان تارة ويعلو صوتهما تارة، حتى وصلا إلى منزل مراد، فبدأ الحديث يأخذ شكلاً أكثر جدية، بل وأكثر مصيرية:

- مراد: اسمع يا مهاجر، أنا أعلم بكل ما جرى لك، وأعرف ظروف حياتك، بل وحياة أسرتك أيضاً، وأعرف ما لا تتوقع أني أعرفه، وعندي الحل لك ولأهلك جميعاً.

- مهاجر مستغرباً: حقا؟ (يكمل بهمسٍ وقد مال نحوه) وكيف عرفت كل ذلك؟ من الذي أخبرك؟

- مراد ضاحكاً: ولماذا تهمس همساً يا مهاجر؟ تكلم يا رجل وارفع صوتك عالياً، أنت بأمان هنا، لا تخف.

- مهاجر متوجّساً: حسناً، وماذا تعرف؟

- مراد: أنا أعرف أنك كنت مسجوناً في المركز الفلاني، وأن المحقق فلان هو من عذّبك، وأنك مراقَبٌ ومحاصرٌ لا تستطيع العمل ولا الدراسة، هل تريد أن أخبرك بأكثر من ذلك؟

- مذهولاً: الله أكبر، كيف علمت كل ذلك؟ هل كنت معهم؟

- مراد ضاحكاً بصوت عالٍ: لا يا رجل لا تقل هذا، وحتى لا تستغرب وتسيء الظن بي، سأخبرك كيف عرفت كل ذلك، ببساطة لقد كان معك بالسجن أحد الاصدقاء الذين خرجوا بعدك

بقليل، فأخبرنا بكل ما حدث معك بالتفصيل الذي لا تتوقعه، هل تريد أن أخبرك بكل شيء؟

– لالا أرجوك، لا تذكّرني، حسناً أخبرني عنك، لمَ هذه اللحية الطويلة، وهذا الثوب القصير إلى تحت ركبتيك بقليل؟

– حسناً سأخبرك بكل شيء وأُبلّغك المفاجأة والرسالة التي أحملها لك، ألم أقل لك أن الحل عندي؟

– بلى، صحيح قلت ذلك، هيا أخبرني.

وبدأ مراد بسرد تفاصيل حياته، وكيف انتقل من حياة الفوضى واللامبالاة، والتقصير في العبادات، وحمل الفكر العلماني، إلى أن هداه الله تعالى وأصبح – على حدّ زعمه – مهدياً على الطريق الصحيح، طريق الجهاد والمجاهدة..

فقاطعه مهاجر مستفسراً عن قصده بالطريق الصحيح، وكيف وصل إليه؟ ومن الذي دلّه عليه وأخذ بيده؟

فأجاب مراد بالمفاجأة التي أذهلت مهاجر:

- اسمع يا مهاجر، لقد انضممت إلى جماعة جهادية، ونريدك معنا، ثق بي، ستتغير حياتك إلى الأفضل، وتستطيع أن تصرف على نفسك وعلى أهلك، وتغدق عليهم الأموال الكثيرة، إنها جماعة ملتزمة بالكتاب والسُّنّة.

- من هذه الجماعة يا مراد؟ وأين ذلك؟ وكيف؟

- إنه الجهاد يا مهاجر، وإنها الغنائم، نحن نقاتل أعداء الله من الكفرة والملحدين، ونغنم منهم الأموال الكثيرة بعد أن ينصرنا الله عليهم، بل ونأخذ السبايا والعبيد الأسرى، فيحق لك أن يكون عندك أَمَةً مِلك يمينك، وعبداً تأمره وتنهاه أن يفعل ما تشاء فأنت سيده، تبيعه و..

- (هنا شعر مهاجر أن الفرصة التي حلم بها لنقل رسالته التوعوية التي أفادها من الأستاذ إلى الشباب المتورط مع هؤلاء، والذين يشعر مهاجر بأنهم ضحايا ما لم يُبيَّن لهم الحق، فقرر أن يساير مراد ويتظاهر بالجهل لكي يصل إلى غايته).

- (مقاطعاً بدهشة مُصطنعة): لحظة، لحظة يا مراد، هل قلت سبايا وعبيد؟ وغنائم؟ هل تمزح؟ هل يُباع الإنسان؟

– (مازحاً): بل جدٌّ الجد، وكلّ الجدّ، يا مهاجر يا ورد، ما بالك مستغرباً بالرّد، ألا تعلم أن الإسلام يبيح كل ذلك؟

– بلى.. بلى ولكن هذه الأمور انتهت من زمان، وقد اتفق العالم على تحرير العبيد..

– مراد مقاطعاً بجديّة: لا يا مهاجر، لا تقل هذا، وما لنا نحن ولاتفاقيات الأمم الكافرة؟! نحن نتبع كتاب الله وسنّة نبينا ﷺ، الإماء حق والعبيد حق، ونحن نقاتل في سبيل الله تحت راية الخليفة..

– مُبدياً استغراباً: خليفة؟! أيّ خليفة؟! والله إن حديثك اليوم مليء بالألغاز والغموض، وكأنك انتقلت بي إلى ألف سنة من التاريخ.

– بل قل انتقلت بك إلى الواقع الصحيح، وإلى المستقبل المضيء..

– المستقبل؟ لحظة هل قلت المستقبل؟ كيف؟

– نعم، المستقبل، إننا نجاهد لكي نصل إلى الملحمة الكبرى.

– الملحمة الكبرى؟! أي ملحمة؟ بربك أجبني! فوالله لقد أثرت فضولي. (يحاول مهاجر أن يعرف من مراد أكثر قدر من المعلومات ويوهمه أنه لم يسمع بكل هذا).

– نحن نُحَضِّر للملحمة الكبرى التي أخبر عنها النبي ﷺ، وسوف نقاتل جميع أهل الكفر في موقع مرج دابق قريباً، وهي في شمال مدينة حلب.

– (متظاهراً بالفرح): الله أكبر! مرج دابق؟ بالله عليك اصدقني الحديث؟ من أنتم ومن قائدكم؟ هل المهدي بينكم الآن، هذه الملحمة هو قائدها؟

– المهدي لم يظهر بعد يا مهاجر، ولكن الشرعيين أخبرونا بأنه على وشك الظهور ولكن يجب علينا التحضير لظهوره لكي يقودنا في الملحمة الكبرى، إننا نرفع شعار: "جاهزون" .

– جاهزون؟! وشرعيون؟ كيف؟ وعن أي شرعيين تتحدث؟ ماذا تعني بشرعيين؟

– مفتي الجماعة ومن معه من العلماء المجاهدين الربانيين العاملين، إنهم غير هؤلاء الذين يدّعون العلم والفتوى، من علماء

السلطان والمال، عبيد أسيادهم من الحكام الكفرة، إن هؤلاء لهم حساب عسير عندنا بعد أن تنتشر دولة خلافتنا الإسلامية.

– دولة الخلافة؟ وأين هذه الدولة؟ أليست الخلافة ستكون في بيت المقدس كما تشير الأحاديث النبوية؟

– كلا.. كلا، بل هي ستنشأ في شمال بلاد الشام، فبعد أن يظهر المهدي وينتصر في معركة دابق، سنقوم بتوسيع الخلافة إلى كل شبر من البلاد الإسلامية.

– لقد انتقلت بي يا مراد إلى أحلام كبيرة، لا أكاد أصدق ما أسمع منك..

– أحلام؟! أحدثك عن الجهاد والمهدي وتحدثني عن الأحلام؟! هيا يا مهاجر، ليس عليك إلا أن تثق بي وتأتي معي لتبايع أمير المؤمنين..

– أبايع؟! أمير المؤمنين؟! ما هذه التعابير الجديدة؟ بالله عليك يا مراد لا تسخر مني، كما أنني أعتقد بأننا لسنا في زمن المهدي..

– أنا لا أسخر منك يا مهاجر، معاذ الله أن أكون كذلك، وإياك أن تقول بأننا لسنا في زمن المهدي، تعالَ معي إلى أرض الرباط والجهاد وسترى عالَماً آخر غير الذي تعرفه، ولتعلم بأننا في زمن ظهور المهدي، وأننا جنوده.

– طيب سأذهب معك لأرى بنفسي ما تقول، ولكن اجعل هذا الاتفاق سراً بيننا، وإياك أن تحدث به أحداً كائناً من كان.

اتفق الاثنان على تحديد موعد لكي ينتقلا فيه إلى المكان الذي أخبر عنه مراد، ريثما يتجّهز لهذه الرحلة، ولكن..

(يبدو لي أن في الأمر سراً)، هكذا حدّث مهاجر نفسه، ثم أكمل يحدّث نفسه: إن كل ما حدّث به مراد يجب عليّ أن أُشكك به، ليس عن مسألة الخلافة والرايات والأمير.. وهذه المسائل، فهي بحمد الله محسومة عندي كما فهمني الأستاذ قبل السجن، وكما شرح لي بالتفصيل أيام السجن أيضاً.

ولكني أظن أن مراد مبعوثاً من قِبل ذلك المحقق الذي وضعني في رأسه، يريد أن يورطني، ولذلك ضيّق عليّ وعلى أهلي، ثم أرسل لي مراد وأنا في شدة وحاجة، لكي أجد فيه

الملجأ والخروج المناسب مما أنا فيه، هذه هي خططهم في توريط الشباب.

فحتى مراد، أتذكره ونحن أطفالاً، هو كان أكبر منا سناً، كان كثير الرسوب في المدرسة، ولم يكن يوماً ملتزماً، ليس بالصلاة فحسب، بل حتى أخلاقياً، كان انتهازياً، يحب المال ويسعى إليه مقابل أي عمل، لقد ترك مقاعد الدراسة باكراً بعد أن طُرد من المدرسة مراراً، وأذكر أنه توظف في أحد الوظائف الأمنية التي لا تحتاج إلى شهادات، ولكن لا أدري أين، عموماً يجب ألا أثق به، وإن كان هناك احتمالٌ بأن الله أكرمه وهداه وأصلحه، ولكن الشك واجب حتى يثبت لي ذلك.

وعلى قاعدة: سوء الظن من حُسن الفِطَن أحياناً، هكذا يجب علي التعامل مع المحيط، (هكذا يحدث مهاجر نفسه، ويتابع): خاصة ونحن في زمن أشبه ما يكون بالسنوات الخداعة، وانتشار الكذب والتدليس والغش والخداع والمكر، وكل ما يُوجبُ علينا الحذر، وعدم تصديق أي شيء بلا تثبت، فالتقنية اليوم والأجهزة والبرامج المتطورة، تجعل التزوير والتدليس متاح وبالإمكان لكل واحد أراد ذلك، حتى ظهر دجاجلة وكَذَبَة بأشكال

مختلفة، قد ينخدع بهم الإنسان فيظن فيهم خيراً لجمال شعاراتهم أو حُسن منطقهم أو سحر بيانهم، وهذا في كل مجالات الحياة عموماً.

فبرغم فرحتي بمجيء هذه الفرصة لكي أتحقق من كل شيء، ولكن كل ما قاله مراد مشكوك فيه لسببين، الأول يتعلق بمراد نفسه، فهو إما أن يكون مدسوساً من جهات معينة ليجرني إلى ورطة ما، وإما أن يكون مخدوعاً بالجماعة التي يتحدث عنها، مغرراً به لا يعرف الحقيقة، وعلى كلا الاحتمالين يجب الحذر وعدم المضي خلفه بلا انتباه وشك وحذر.

والسبب الثاني فلأني أعلم أن أمثال هؤلاء الجماعات لهم أيدولوجياتٌ محددةٌ، وهم عادة مُختَرَقون من جميع الاستخبارات العالمية، وهذا لم يعد يخفى إلا على السُّذّج، فأمرهم مفضوحٌ معروف، ومحالٌ أن أنتمي إليهم، ولكنها قد تكون فرصةً لتجربة لأتعرف عليها من الداخل، صحيح أنها ستكون تجربة محفوفة بالمخاطر، لأن مجرد الارتباط بهم سيشوه سمعتي، كما أنه إذا كان الدخول فيهم سهلاً فإن الخروج عنهم أصعب.

والأهم من هذا وذاك، فأنا أصبحت موقناً أننا لسنا في زمن المهدي، ولا بزمن معركة دابق التي تحدَّث عنها مراد، ولكن مع ذلك سأدخل في هذه المغامرة، لأتعرف بنفسي على كل تفاصيل حياتهم وحياة المخدوعين بهم.

وبالعودة إلى مراد، هل مقابلة مرادٍ لي في هذا التوقيت من قبيل المصادفة فعلاً؟! أم أنه دورٌ جديدٌ في مسرحية المحقق، يُضاف إلى أدوار المحاسب في المعمل والموظف في الكلية؟

ثم لو كان هذا اللقاء من قبيل المصادفة، هل كان عرْضُه لي بالانضمام إلى جماعته، أيضاً من قبيل المصادفة؟

ثم هل المعلومات التي يعرفها مراد عن تفاصيل سجني، والتي أخبرني عنها على أساس أنها من سجين كان معي، والظروف والملابسات الدقيقة التي حدثني عنها، هل هي أيضاً من قبيل المصادفة؟! كما ادّعى مراد.

إذاً الأمر برِمَّته يحتاج إلى "صفنة"، وإعادة نظر وتدقيق، فكل الملابسات توجب الشك وعدم التسليم لها بسذاجة.

جلس مهاجر يفكر في كلام الأستاذ في آخر لقاء بينهما:

لقد دلني الأستاذ على الحق، ويجب عليّ ألّا أبخل بنشر ما علمني إياه بين أوساط الشباب، وأفضل مكان لنشر هذه الأفكار الصحيحة ومحاربة تلك الأفكار الخاطئة، هو الميدان الذي يتواجد فيه هؤلاء الشباب، إذاً لابد أن أخوض هذه المغامرة وهذه التجربة، لعل الله ينقذ بي عدداً من الشباب المغرر بهم.

حقاً إن الأفكار كالفيروسات، إذا انتشرت كانت كالأوبئة الضارة القاتلة، إنها أفكار **الغلاة**، التي تحول الشباب إلى **بغاة**، بل إلى تكفيريين، يكفّرون أهلهم ومجتمعاتهم، فيستحلّون الدماء بلا حق ولا رحمة، ويطلقون صيحات التكبير على ذلك وهم يظنون أنهم يحسنون صُنعاً، إنه الفكر الذي خرج عن سبيل الأمة.

بل إن هذه الأفكار لأشد فتكاً في المجتمعات من الأوبئة، لأن الأوبئة مهما قتلت لن يزيد العدد عن مئات الألوف، بينما هذه الأفكار فإنها تدمر مجتمعات بأكملها، وأجيال تنشأ على الفهم المعكوس، يظنون السنة بدعة والبدعة سنة، يَرْبُون

في الأخطاء والفتن، كما قال سيدنا عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه: (كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً فَإِذَا غُيِّرَتْ قَالُوا غُيِّرَتْ السُّنَّةُ؟ قَالُوا: وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قال: إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ وَالْتُمِسَتْ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ). **رواه الدارمي في السنن والحاكم في المستدرك.**

وهذا ما نراه الآن للأسف يتحقق، فقد خرج هؤلاء يظنون بأنهم على حق، كما قال ﷺ: **(يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)**.رواه مسلم، وفي رواية قال: **(يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ).**

فهم يستغلون وقوع الخلاف بين الناس ويستغلون الثورات، ليوجدوا لهم بيئة مناسبة يطلبون فيها بالحكم لأنفسهم بالقتل، فلا يراعون الدماء ولا أهل الذمة، كما قال ﷺ: **(وَمَنْ**

خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ). رواه مسلم.

ثم يأتي من يستغل فيهم هذا الجهل في الشرع، ويستغلون هذه الغفلة التي فيهم، وهذا الحماس العاطفي، ليجعلوهم مطية لهم في مزيد من الهدم والدمار والتخريب في بُنية الأمة وجسدها، حتى أصبحوا كما جاء في الحديث عن أَبي أُمَامَةَ الباهلي رضي الله عنه يَقُولُ: (شَرُّ قَتْلَى قُتِلُوا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ وَخَيْرُ قَتِيلٍ مَنْ قَتَلُوا كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ قَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ مُسْلِمِينَ فَصَارُوا كُفَّارًا قُلْتُ يَا أَبَا أُمَامَةَ هَذَا شَيْءٌ تَقُولُهُ قَالَ بَلْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). **رواه ابن ماجة والحاكم.**

*****

الفصل الثاني

(بداية الرحلة)

السفر إلى مقرّ التنـظيم..

في أيام قليلة، تجهّز مهاجر وانطلق مع مراد متجهين نحو منطقة تواجد التنظيم الذي أخبر عنه مراد، الذي يدّعي إقامة دولة الخلافة، وهم ينتظرون – بزعمهم – المهدي ليقود جهادهم لمقاتلة الكفرة.

وكعادته عندما يخرج مهاجر إلى مشاويره المهمة، فإنه لا يخبر أحداً من أهله، إلا أنه في هذه المرة ألمح لشقيقه أنه إذا غاب عن البيت لمدة طويلة، فليخبر والديه أنه بخير ولا داعي لأن يفعلوا ما فعلوه في المرة السابقة، من سؤال وبحث، أو من خوف وقلق عليه. يصف مهاجر الرحلة، فيقول:

لقد كانت مليئة بالمخاطر والصعاب والمغامرة، فما من قرية أو بلدة أو مدينة مررنا بها، إلا وكانت القلوب تبلغ الحناجر من الخوف، وما من طريق بين تلك القرى والبلدات إلا وكان الخوف فيه مضاعفاً أكثر، لاحتمال التعرض لمحاولات اغتيال أو قنص، بسبب المرور في مناطق مكشوفة للغير، ولا يوجد ما يدفع بنادق الأعداء عنا ومراقبتهم لنا.

لقد ركبنا في رحلتنا هذه جميع أنواع المواصلات، وأمضينا أكثر الطريق مشياً على الأقدام، وعانينا فيها كل أشكال العذاب والمخاطر، خاصة أنها كانت في فصل الشتاء.

في البداية خرجنا من مدينتنا بواسطة إحدى الحافلات الجماعية المعروفة، حتى نزلنا على مفترق طرق شبه صحراوي، ينزل فيه عادة أصحاب القرى البعيدة التي لا تصلها المواصلات الجماعية، ومن هناك مضينا في رحلة من نوع آخر، كانت قرابة ساعة، مشينا فيها على الطين، وكأننا لأول مرة نتعرف على موسم الشتاء، حتى وصلنا إلى قرية صغيرة، بل هي خرابة قليلة السكان، وكان الليل قد بدأ يسدل أستاره علينا، فالنهار قصير في الشتاء، وهناك اجتمعنا مع شخصٍ غريب الأطوار، كأنك تقابل رجلاً من الاستخبارات الإنجليزية القديمة، الذي يظهر عليه التصنع والتخفي بشكل مضحك، هكذا أشعرني أسلوبه في الحديث معنا.

المهم، ثم أخذنا هذ الرجل على دراجة جبلية كبيرة، ركبنا خلفه أنا ومراد، حتى وصلنا إلى مزرعة بعيدة ليس لها طريق

نظامي، كانت عبارة عن بناء قديم أثري متهالك، وحوله أشجار عالية كثيرة، وفيها بئر ماء قديم.

هذه المزرعة كانت معروفة من قَبل لبعض مهربي العَمَالة الوافدة بشكل غير نظامي ليعملوا في البلد، هكذا علمت لاحقاً، وبالفعل كان يوجد فيها خمسة شباب من جنسيات مختلفة، جاؤوا لهذا الهدف الذي خرجنا نحن لأجله، وكانوا قد دخلوا متسللين بمساعدة مهربين من هذه المنطقة الحدودية.

كان مبيتنا في تلك الليلة الباردة، في هذه المزرعة الموحشة، والتي لم تكن معدة لهذ العدد من الأفراد، أول ليلة في سفرنا، وكانت هذه هي المعاناة الأولى لنا، حتى خرج علينا نور اليوم التالي.

فما أن بدأت الشمس في الشروق حتى كان مراد يصحبنا لنكمل رحلتنا، وإذ بحافلة نقل جنود قديمة لا تحمل لوحة رقمية، تبدو بعيدة قليلاً، كانت تنتظرنا على بعد مسير نصف ساعة، لأنها لا تستطيع الوصول إلينا لوعورة الطريق الأشبه بالوادي لكثرة الصخور فيه، فحمل كل واحد منا متاعه على ظهره وتوجهنا إليها.

هناك استقلينا تلك الحافلة فركبنا في صندوقها الخلفي، ومضت فينا ساعتين من الزمان، تسير في طرق وعرة، تميل فينا يميناً وشمالاً حتى شعر أكثرنا بأنه يريد أن يستفرغ ما في بطنه من الخضخضة، إلى أن لاحت لنا قرية من بعيد، فأنزلونا على بعد مسير نصف ساعة منها، بحجة أنها لا تستطيع الوصول إليها لعدم لفت الأنظار إلينا، فهي قرية صغيرة والجميع فيها يعرفون بعضهم بعضا، فإن لاحظوا بأننا غرباء ربما يسببون لنا المتاعب، ونحن أصلاً لا نريد دخولها، بل نريد محاذاتها لكي نصل إلى إحدى الاستراحات الخارجية هناك لننطلق منها على متن "تركتور" زراعي له صندوق يحمل فيه أكياس القش والتبن.

وهناك كانت المعاناة الثانية، حيث كان المطلوب منا أن نبقى للمساء ثم نختبئ في داخل هذه الأكياس، لكي ننطلق ليلاً لنجتاز الطريق فيها إلى قرية جبلية، حيث يوجد قبلها حواجز تفتيش أمنية.

ولكن لسوء حظنا لم يكن الطريق مُيسّراً في ذلك اليوم لهذا الجزء من الرحلة، ولا في اليوم التالي، فقد كان ضابط الدورية وعناصره الذين تم دفع الرشاوى لهم ليغضوا الطرف عنا

حين مرورنا، لم يأت دورهم بعد في وظيفتهم بالوقوف في هذا المكان في طريقنا.

وهكذا حتى اليوم الخامس، أخبرونا أننا يجب أن ننطلق اليوم، حيث بدأ دوام تلك الدورية المرتشية، وكنا في كل يوم من الأيام الخمسة الماضية نستعد فيها وندخل أكياس التبن وننتظر الأمر بالمسير، ولكن كانت الأخبار تتوالى علينا بأن الطرق مراقبة والمسير فيها يشكل خطراً كبيراً، وأن الدورية المتعاونة لم تأت بعد.

طبعاً في هذه الأيام الخمسة، كانت مشكلتنا الأساسية هي تدبر مشكلة المبيت والنوم، لأنه لم يكن في الحسبان المكوث ولا لليلة واحدة، فكنا نضطر إلى التخفي عن أعين الناس في النهار، والمبيت في الاستراحة الصغيرة بالليل، والتي لم تكن مُعدّة للنوم فيها، فهي عبارة عن مطعمٍ صغيرٍ مليءٍ بأدوات الطبخ في داخله، مع بعض الكراسي والطاولات المثبّتة في ساحة المطعم، والتي تم تثبيتها تحت مظلات من القش الكثيف والخيزران.

هذه الأيام الخمسة، ورغم قسوتها وخطورتها، إلا أنها كانت فرصة للتعارف أكثر بيني وبين بقية الشباب في المجموعة، حيث تقاسمنا الخوف والقسوة والبرد سوية، كما تقاسمنا الطعام القليل بيننا، فقد كان زادنا مُعدّاً لمدةٍ أقلّ من المدة التي بقينا فيها.

كان زئيفٌ ممن قدم من إحدى دول الاتحاد السوفييتي السابق، طويل الشعر جداً، وكان أشقراً، أزرق العينين، طويلاً ونحيلاً وكأنه قادم من مجاعة في بلده، وكان طيب القلب شهماً، يُؤْثِر غيره على نفسه ولو كان به خصاصة، وكان قد تلقى بعض التدريب على السلاح قبل قدومه.

وكان "أبو السّراج" و"أبو الحوامد" من جزيرة العرب، شديدا السُّمرة طويلا الشعر مع نعومته وسواده، كانا في مثل عمري تقريباً، يبدو عليهما قلة الخبرة، فهي أول تجربة لهما، رغم أنهما كانا في قمة الشجاعة والإقدام لا يعرفان الخوف.

وكان الرابع "أبو العتماء" والخامس "أبو المغارب" كانا من المغرب العربي، لم نكن نفهم كلامهما إلا إذا تحدثا بالعربية

الفصيحة، وكانا أكثر خبرةِ ومجالدة منا جميعاً، فقد كانا قد انضمّا لما يُسمّى بـ"الجماعات الجهادية" من قبل.

هكذا كان التعارف بهذه الكنى، ولم أتعرف على أسمائهم، بل لم أسأل أحداً منهم عن ذلك.

أما زئيف فقد كان التقارب بيني وبينه أكثر من بقية الزملاء، لا أدري لماذا، ولكنها القلوب بيد الرحمن سبحانه، إذا تآلفت تعارفت، فكنا نشعر أحياناً بأننا نعرف بعضنا منذ سنوات طويلة، ربما لأننا نشترك بصفة الهدوء وطول التأمل.

وهكذا بعد مضي الأسبوع الأول على مغادرتنا مدينتنا، وصلنا أخيراً إلى القرية الجبلية في منتصف الليل، وكان من الخطر أن نبيت في هذه القرية، لأنها مليئة بالعناصر الأمنية المسلحة، المكلفة بحماية أحد الشخصيات المهمة في الجيش من الرُّتب العالية، فهُم دائمو التجوال كدورياتٍ متناوبةٍ في شوارع القرية، وفي حالة تحفّزٍ كامل للدخول في أي اشتباكات مسلحة.

مما اضطرنا ورفاقنا إلى الخروج منها بسرعة، رغم نفاد كمية المحروقات في السيارة التي تقلّنا هذه المرة، وعلى الرغم

من وجود مركز تعبئة في وسط القرية لكنه كان مقفلاً، وستبدأ ساعات العمل في الصباح الباكر، مما جعلنا في حيرة من أمرنا، إلى أن استقر الرأي على الاختباء خلف أحد التلال العالية حتى الصباح، لنرى كيف سنتدبر أمرنا.

ومع بداية شروق الشمس، بدأنا بالتحرك الحذر إلى أقرب نقطة تُقربنا من مركز التعبئة، لعلنا نستطيع التسلل إليها أو حتى إرسال بعض أفراد المجموعة ليأتوا "بالبنزين" "بآنية" يحملونها بأيديهم، ثم يقومون بتفريغها في السيارة.

لقد غاب عن بال هذه المجموعة، أن في المنطقة قناصين لا تُرى مخابئهم، وهم أشد خطراً عليهم من الدوريات المتنقلة، لكنه قَدَرُهم الذي يُساقون إليه.

حمل اثنان من المجموعة "الآنية" الفارغة وتوجّها نحو مركز تعبئة الوقود، وهما زئيف وأبو السراج، وكان أبو السراج يلبس اللباس المعروف في بلاد باكستان وأفغانستان، وهو مكون من قطعتين، الأعلى اسمه رداء، والأسفل اسمه إزار، ويلبس القبعة التي يلبسونها في تلك البلاد أيضاً، ويظهر من تحته شعره الطويل، بالإضافة إلى لحيته الطويلة بشكل مبالغ فيه جداً.

أما زئيف فكان يلبس بدلة عسكرية غربية، وكانت لحيته قصيرة إلا أنه كان يلبس القبعة العسكرية.

بهذا الزيّ الملفت للنظر خرج الاثنان مشاة في الشوارع متجهين إلى مركز التعبئة، كأن لسان حالهم يقول للناس: "انظروا إلينا، نحن غريبان، نحن من تطلقون عليهم اسم "إرهابيين"، هيا أبلغوا الأمن عنا، نحن مطلوبان".

وفجأة بلا أيّ مقدمات، سقط أحد الشابين في لحظة على الأرض ميتاً، كان الذي سقط هو أبو السراج، مما جعل زئيف يفزع فجأة، فيقفز إلى جانب الطريق ليلوذ خلف ساتر ترابي، يتلفّت نحو جميع الاتجاهات وهو يلهث، ليعرف مصدر الرصاصة التي سمع صوت أزيزها بأذنه يمرّ من جانبها، لتستقر الرصاصة في رأس زميله.

دبّ الرعب في قلب زئيف، كيف سيتصرف، هل سيلقى مصير زميله؟ ما العمل؟ هذه أول تجربة له.

عموماً لابد من محاولة الهرب والنجاة، قام زئيف بإلقاء "الإناء" الذي بيده نحو الطريق، يجسّ نبض القناص، ليرى هل

سيطلق القناص رصاصة نحوه؟ فإن أطلق فإنه لا يزال يراقبه إذاً، والأمر خطر جداً.

فما أن ألقى زئيفٌ الإناء فإذ به يرتدّ إلى جهة مغايرة للتي ألقاها، قبل أن يصل إلى الأرض، ورصاصة تثقبه وتخرج منه لتستقر في التراب الذي أخرجت غباره، أيقن أن القناص يراقبه ولن يرحمه، ازداد خوفاً وحيرة، لحظات من الرعب تمرّ أبطأُ من السلحفاة في المشوار الطويل، إنها لحظات مصيرية، فإما الهلاك وإما النجاة، ويبدو أن فُرص النجاة ضئيلة جداً، ما العمل؟!

حيرة، قلق، ترقب، عيناه لم تستقران للحظة، تبحثان في كل اتجاه، يلهث بسرعة مطّردة، نَفَسُه يضرب في التراب المواجه لوجهه فيُخرج غبار التراب، بدأ يلوم نفسه: كيف لي أن أخرج بلا سلاح، يا لي من غبي، كيف لم أحمل سلاحي معي، ما العمل الآن؟ كيف النجاة؟

لم يكن بين زئيف ومراد علاقة سابقة، وكذلك مع بقية الشباب، فقد كان هذا هو اللقاء الأول للجميع مع بعضهم بعضًا، إلا أنه في هذه الرحلة، طرأ تقاربٌ واستلطافٌ بين زئيف

ومهاجر، فكانا طوال الأسبوع يتناجيان سوية وكأنهما أصدقاءُ طفولة، يضحكان معاً، يأكلان معاً، يقرآن القرآن معاً يُسمّعان لبعضهما.

الآن، قرر زئيف انهاء حالة الرعب هذه التي تورط بها، لم يعد يبالي أياً كان مصيره، تمتم بما يحفظه من كتاب الله تعالى، ثم بسملَ وحوقلَ، وانطلق بأقصى ما بقي له من عزم الخائف، الذي تهتز مفاصله رعباً وفَرَقاً، لم تكد قدمه الثانية تغادر الساتر الترابي إلا وهو يلفّ ويدور على الأرض، كالطير يرقص مذبوحاً من الألم، لقد استقرت رصاصة القناص الماكر في ساق زئيف اليسرى، لقد قنصه في آخر لحظة، ثم تركه قليلاً يتلوى في مكانه ويئن ألماً، فثنّى برصاصة ثانية لتستقر في ساقه اليمنى، حتى يزداد ألماً فلا يستطع القيام، وما هي إلا لحظات حتى امتلأ الموقع بعشرات رجال الأمن، فحملوا جثة الأول، ورفعوا زئيف بعد أن أشبعوه ضرباً وركلاً، رغم إصابته، مع الشتم والصراخ، وكأنهم هم الخائفون المرتعبون.

أما جثة أبي السراج فرموا بها في حفرة معدّة سابقاً لمثل هذه الحالات، وأما زئيف فأخذوه إلى التحقيق.

في هذه الأثناء، شكّ مراد ومن معه بأنَّ يكون مكروهاً ما قد ألمَّ بصاحبيهم، فقد تأخرا كثيراً، بالإضافة إلى صوت الجَلَبَة التي أحدثتها في البلْدة سيارات الجيش والأمن، صعد مراد بحذر إلى أعلى التلة التي يختبؤون خلفها، أخرج منظاره يحاول استشراف خبر ما، إلى أن وقعت المفاجأة، يبدو أن صاحباه في قبضة الأمن، إمّا أحياءً وإما أمواتاً، عموماً يجب التصرف بسرعة، يجب الهرب فوراً، احتمال أن يعترف زئيف وزميله إن تمّ القبض عليهما على موقعنا من شدة التعذيب، إن كانا على قيد الحياة، الوقت ليس لصالحنا، هيا يا شباب بسرعة.

امتلأت قلوب الشباب خوفاً، وزاد قلب مهاجر عليها همّاً وقلقاً على مصير رفقاء الطريق، يا ترى ماذا حدث لهما؟ ما هو مصيرهما.

أمر مراد المجموعة بضرورة سرعة الخروج من المدينة فاحتج عليه أبو الحوامد قائلا:

– وكيف نخرج ونترك رفاقنا بأيدي الأعداء؟ سيكيلون لهم جميع أصناف العذاب، يجب مساعدتهم وانقاذهم..

– مراد مقاطعاً: على هونك يا أبا الحوامد، لا تأخذ الموقف بالعاطفة، صدقني أنني حزين على مصير أبي السراج مثلك تماماً، ولكن إن انتظرنا أكثر فسنتعرض جميعنا للهلاك، فإما أن نُعتقل وإما أن نُقتل، أوكل أمرهما إلى الله تعالى، ولا تنسَ بأنك ماضٍ بما اتفقت عليه مع صديقك، وهيّا بنا نغادر.

بهذه الكلمات القليلة خفف مراد من حدة موقف أبي الحوامد، فما كان منه إلا أن صاح والدمع يملأ عيناه:

– لن يذهب دمك هدراً يا ابن عمي وصديقي الغالي، أُقسم بأنني سأنتقم لك من هؤلاء المجرمين، وإني على العهد الذي بيننا ماضٍ، وسأكون وفياً لما اتفقنا عليه يا أبا السراج، نم قرير العين يا صديقي.

هكذا نعى أبو الحوامد صديقه، وبهذه الكلمات الخارجة من قلبه ودّعه، وقد بلغ الحزن بقلب أبي الحوامد مبلغه الكبير، على رفيق دربه، ثم مع تعزية الجميع له محاولين التخفيف عليه، إلى أن بدت عليه الحيرة بين صدق كلام مراد، وبين وقوفه عاجزاً عن انقاذ صديقيه، فاستسلم للواقع ومضى مع

المجموعة على كُره، واستطاع مراد بذلك السيطرة على أقسى المواقف التي مرت معه في هذه الرحلة.

اختبأ الجميع في أكياس التبن والقش، ومن غير أن يُشغّل السائق محرك السيارة، فقد كانوا قد أعدوها مُسبقاً على رأس الشارع من الأعلى متجهةً إلى الأسفل، نزلت السيارة بسرعة منطلقة في المنحدر نحو الوادي.

لم يُشغِّل المحرك لكي يوفر البنزين، ولكيلا يُصدر صوتاً يُلفت النظر إليهم ريثما يبتعدون قليلاً.

واصلوا طريقهم إلى أقرب مركز لتعبئة الوقود، فارّين من الموقف الذي كانوا فيه، جاهلين مصير صديقيهم، وقد خيم الحزن والقلق على الجميع.

جلس مهاجر بجانب أبي الحوامد يواسيه ويعزيه بصديقه: صبرًا يا أبا الحوامد واحتسب أبا السراج عند الله شهيداً.

– أسأل الله له الشهادة..

– يبدو أن بينكما صلة قرابة أيضاً فوق الصداقة التي بينكما؟

– نعم إنه ابن عمي وصديق طفولتي وزميل دراستي..

– حسبنا الله ونعم الوكيل، أعلم أن هذا يزيد من صعوبة الموقف..

– إن ما يخفف عليّ ألم الفراق هو أننا تعاهدنا على الشهادة من قبل الخروج..

– ما شاء الله، حدّثني عن العلاقة بينكما وكيف جئتما إلى بلدنا، إن لم يكن هذا يضايقك!

– لا لن يضايقني، بل سيجعلني أبوح بما في قلبي من كلام، لقد كنا أصدقاءً في جميع مراحل الدراسة، فنحن أبناء عمومة وجيران في نفس الحي.

لقد درسنا الابتدائية والمتوسط والثانوية سويةً، ثم دخلنا كلية الصحافة والإعلام سويةً، حتى وصلنا إلى السنة الثالثة، ولم يعد لدينا الكثير من الدراسة حتى نتخرج من الجامعة.

كم تعاركنا وتمازحنا، وتخاصمنا وتراضينا، أسرارنا لا يطّلع عليها أحدٌ، إلا أننا كنا نختلف في الطموح، فهو كان يريد

أن يكون مذيعاً ومقدماً لبرامج تلفزيونية، وأنا أحببت أن أصبح كاتباً وروائياً.

هل تعرف يا مهاجر كيف جاء بنا مصيرنا إلى هنا وعلى ماذا اختلفنا، ولماذا لم نكمل دراستنا الجامعية؟

– كلا يا أبا الحوامد، تفضل أخبرني.

– لقد تابعنا أحداث الثورات العربية باهتمام بالغ، وتأثرنا بمقتل الأبرياء والمجازر الجماعية، ومشاهد الأطفال والنساء وهم قتلى تحت هدم بيوتهم، وغرقى في البحار والمحيطات يرجون النجاة هرباً، وكيف أن بعض الجيوش تحولت من مهمة حماية الشعوب إلى مهمة قتلهم وتعذيبهم، وقد عملنا على نشر هذه الأحداث في وسائل إعلام مختلفة، عبر مواقع التواصل الاجتماعي تارة، وعبر بعض المحطات التي كنا نراسلها على سبيل التدريب.

ثم في أحد الحوارات التي دارت بيننا، كنت أحاول اقناعه بأنه لابد من النزول إلى ميادين الجهاد، وعدم الاكتفاء بنشر الأحداث، وإلا فإننا متخاذلون تجاه إخواننا في الإسلام.

وكان رأيه بأن ما نقوم به هو أيضاً من ضمن العمل الجهادي، ولا يقل عن جهاد القتال، وبأننا يجب الاستمرار لتوصيل الحقائق إلى العالم.

فكنت أقول له: ما الفائدة من نقل مشاهد القتل وصور الجرائم إلى عالَمٍ إنما هو شريك بصمته في هذا القتل وفي هذه الجرائم؟!

وفي أحد الأيام، دار نقاش بيني وبين أبي السراج حول مسألة اختلفنا فيها، فقد كنت أرى أنه لم تعد هناك فائدة مرجوّة من إكمال دراستنا الجامعية، ويجب أن ندخل الحياة العملية فوراً، بل إن اقتضى الأمر أن نكون مشاريع شهادة، فسنكون آثمين إن لم نلبِّ نداء الجهاد.

بينما كان أبو السراج يرى أن الواجب علينا إكمال الدراسة ونيل الشهادات الجامعية، من غير أن نترك واجبنا الجهادي تجاه أمتنا، ولا تعارض بين نيل الشهادة وتقديم واجبنا الجهادي.

– مهاجر: الحقيقة أنا من رأي أبي السراج رحمه الله، فلا تعارض بين الشهادة والعمل الجهادي، فالعلم للجهاد كالتجويد لقراءة القرآن، يضبطُ أحكامَه ويصحِّحُ تلاوته.

– كنت سأتفق معك يا مهاجر لو كان هذا العلم هو العلم الشرعي الواجب، ولكن ما فائدة الإعلام اليوم؟!

– لا يا أخي، فالإعلام من أهم أسلحة الجهاد، وهو من أهم أسباب الانتصار، فهو اليوم كالشِّعْرِ أيام الجهاد النبوي، يوصل الحقائق للناس، ويُرعب الأعداء، وينشر الانتصارات والبشارات بين المسلمين..

– ولكن يا مهاجر! هذا أبو السراج قد اختاره القدرُ شهيداً، فماذا سيستفيد لو نال الشهادة الجامعية؟ هل الشهيد الجامعي أفضل من الشهيد غير الجامعي؟

– كلا يا أبا الحوامد، المسائل لا تقاس هكذا، فلا أبو السراج ولا أنت ولا أنا نعلم متى وأين وكيف ستكون ساعتنا، ونحن مأمورون بأنه لو قامت الدنيا وفي يد أحدنا فسيلة فليغرسها، نحن أمة لا تعرف اليأس والقنوط، نحن لا نعرف سوى العمل والأمل،

أما بالنسبة لعلم الإعلام اليوم، فهو لا يقلّ أهمية عن جهاد القتال، فنحن في زمن التزوير والتزييف الإعلامي، والحرب الإعلامية، والتأثير الإعلامي، وكل هذا يجعلنا نحتاج إلى جيش من الإعلاميين وليس مجرد أفرادٍ، لكي يقفوا في وجه الإعلام المزيف فيفضحوا زيفهم ويُفنّدوا أكاذيبهم وتدليساتهم، فالإعلام في زمننا هو السحر ذو الوجهين، وعلينا واجب استخدام السحر المباح في الرد على السحر الحرام.

– قد تكون وجهة نظرك صحيحة يا مهاجر.

– نعم، وسيأتي يومٌ قريبٌ أُذكّرك بما أقوله لك الآن.

وهكذا كانت بقية الرحلة، نتنقل من وسيلة مواصلات إلى وسيلة مواصلات أخرى، ولكن كان المشي على الأقدام له النصيب الأكبر في الصحراء، وهي آخر الوسائل التي استخدمناها، حيث لا شيء سوى أرجلنا.

وفي إحدى الاستراحات بعد مسيرة مُضنية وشاقة، جلس الشباب في إحدى الخربات المهجورة، وحول النار التي أشعلوها ليدفعوا بها قسوة البرد ثم ينامون حولها.

جلس مهاجر بين أبي العتماء وأبي المغارب يسامرهم ويجاذبهم أطراف الحديث همساً، في حين استلقى مراد وأبو الحوامد واستسلما للنوم العميق، وبعد حوار عام قصير:

– مهاجر: وكيف علمتما بهذا المعسكر الذي أتيتما لأجله وقررتما الانضمام إليه؟

– أبو العتماء: لقد كان مشواراً طويلاً يا مهاجر، مررنا فيه بمشاقّ وعقباتٍ لا تخطر لك على بال.

– إذاً حدِّثاني عن رحلتكما، نتسامر حتى يحلّ علينا النعاس فننام.

– حسناً، أما أنا فقد كنت أعمل في "مِحددة" عند زوج والدتي، وهو الذي رباني، فأنا لم أكمل دراستي بعد الابتدائية، ولكني أعرف كتابة اسمي جيداً، ولا أعرف كتابة غيره، ولكني في الحدادة خبيرٌ لا يجاريني فيها أحد.

فوالدي سافر إلى فرنسا، وبعد سنتين تزوج هناك، مما أغضب والدتي، فطلبت الطلاق ثم نالته بأمر المحكمة، وبعد

مدة قصيرة تزوجت والدتي أيضاً، وهذا سبب عدم تعليمي، لأني يتيم.

– يتيم؟ كيف تقول إنك يتيم وقد ذكرت أن والدك حي يرزق في فرنسا، ووالدتك متزوجة أيضاً؟ أفهمني هذا أولاً.

– حسناً يا صديقي هذه سهلة، فليس اليتيم اليوم من انتهى والداه من الحياة.. إنما اليتيم من له أبٌ مفسبكٌ وأمٌ مفسبكة.

– (يضج الجميع بالضحك) مهاجر: صدقت والله، تقصد أن اليتيم من له أمٌ تخلّت وأبٌ مشغول.. ولكن بلغة اليوم..

– نعم صدقت، أحببت أن أضحككم قليلاً، المهم.. أراد زوج والدتي أن يتزوج مرة ثانية، من فتاة في سِنّي، لا تكبرني ولا تصغرني، لذا أمرني زوج والدتي أن أبحث عن سكن آخر، لأنه لم يبق لي مكانٌ في البيت بعد قدوم العروس الجديدة، وهددني بالطرد من العمل.

في الحقيقة لم أتعب كثيراً في البحث عن سكن جديد لي، ولم أتعب أيضاً في البحث عن عمل في محددة أخرى، وذلك لأنني كنت على علاقات جيدة مع كثير من الناس من

كافة الطبقات والأعمار، فأنا قديم في ميادين العمل، وقد كوّنت علاقاتٍ كثيرة، فالجميع يعلم صدقي وأمانتي، ويعلمون أني حداد مميز في عملي ومخلص فيه لا أعرف الغش، وكنت معروفاً بحبي للحياة ومساعدتي للجميع وبحسن أخلاقي.

لذا بعد أيام قليلة من البحث، انضممت إلى سكن شباب في سِنّي يدرسون في الجامعة، كنت قد صنعت لهم بعض الحمايات للشبابيك في مسكنهم، وكنت قد خفّضت لهم السعر.

كان هؤلاء الشباب يدرسون الشريعة، وكانوا منتمين إلى تنظيم إسلامي، يتلقون فيه العلم الشرعي الحقيقي، المخالف لما يدرسونه في الكلية، فقد شرحوا لي أن الكلية تعلمهم التسيب والتهاون في الدين، وأن المركز التابع للتنظيم هو الذي يعلمهم الدين الصحيح والعلم الحقيقي، ولكنهم كانوا مضطرين إلى الذهاب للكلية لكي ينالوا الشهادات الرسمية لدى الدولة.

وبعد أن شرحوا لي وعلموني، وجدت أنني كنت لا أعرف شيئاً عن ديني، فالتزمت وتعلمت منهم الصلاة والوضوء، وحفظت القرآن الكريم، وتعلمت معنى التوحيد الحقيقي، وعرفت أن المجتمع يعيش في جاهلية وكفر، وبأنهم لا يعرفون الصلاة،

ويجب علينا أن نصحح عقيدة الناس أولاً، وأن نعلمهم التوحيد الخالص قبل كل شيء..

– مهاجر: ولكن يا أبا العتماء، مهما كان المجتمع جاهلاً على حدّ وصفك فلا يجوز أن نصفه بالكفر أليس كذلك؟!

– هنا يتدخل أبو المغارب في الحديث مقاطعاً الاثنين: لا يا أخ مهاجر، كلامك غير صحيح أبداً، إن هذا المجتمع عقيدته فاسدة، ويقوم بأعمال شِركية وكفرية، ويجب علينا محاربة هذا الشرك وهذه البدع التي يقومون بها..

ينظر مهاجر إلى أبي المغارب بصمت واستغراب، وكأنه يُنكر ما أكّد عليه، ثم ينظر إلى أبي العتماء وكأنه يستوضحه..

– أبو العتماء: نسيت أن أخبرك يا مهاجر أن الأستاذ أبا المغارب هو دكتور في الشريعة، وكان مدرساً في الجامعة، لقد استطاع الإفلات من الكَفَرة بصعوبة، لقد خرجنا من البلاد في رحلة شاقة وطويلة حتى وصلنا إلى هنا..

– ما شاء الله! دكتور في كلية الشريعة؟ ولكن من هؤلاء الكفرة الذين أفلت منهم الدكتور؟

– أبو العتماء: إدارة الجامعة التي كان فيها، فقد كان مراقَباً لأنهم يعلمون أنه لا يوافقهم على عقائدهم الفاسدة وتمييعهم للدين وموافقتهم للسلاطين الكفرة..

– مهاجر: أنت تُكثر من كلمة "كفرة" يا أبا العتماء، فكيف هم زملاء وإدارة في كلية الشريعة، وكيف هم كفرة في آن واحد؟ هل يُعقل أن الدولة تعين في كلية الشريعة الإسلامية كفاراً؟ هذه لم استوعبها منك عدم المؤاخذة!

– الدكتور أبو المغاربة: أنا سأشرحها لك يا مهاجر، دعني أُفهمه القصة يا أبا العتماء، فيبدو أن مهاجرًا لا يعرف شيئاً عن بلادنا..

– أبو العتماء: تفضل دكتور.

– أبو المغاربة: إن دولتنا يا أخ مهاجر دولة كافرة، لا تقيم الإسلام ولا تحكم به، والله تعالى يقول في كتابه العزيز: **(إن الحكم إلا لله)** ويقول أيضاً: **(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك**

هم الكافرون)، أما زملائي من العلماء، أقصد الذين من المفترض بهم أن يكونوا من العلماء، إنما هم مجرد إمّعات يُنفّذون ما يُطلب منهم، وينافقون للسلطان خوفاً على وظائفهم ورواتبهم، فهل عرفت لماذا نقول عنهم كفرة؟

– مع أنني لا أوافقكما الرأي، ولكن كيف تصرفتما معهم حتى هربتما وأفلتما منهم؟

– أبو العتماء: لقد خططنا لاغتيال مدير الجامعة فهو رأس الكفر والنفاق، ويعتبرونه علّامة زمانه، فله كتباً منتشرة بين الناس، وله لقاءات تلفزيونية ودروس وخُطَب كثيرة، ولكنه يُعلّم الناس الباطل ولا يعلمهم الحق.

– مهاجر: ولكن يبدو من كلامك يا أخي أنه عالِم وله قبول بين الناس، ينشر العلم بينهم..

– الدكتور مقاطعاً: قلت لك يا أخ مهاجر بأنهم رغم حملهم شهادات عليا ورغم كل ما يقومون به، إلا أنهم لا يحكمون بما أمر الله به، إنهم يخضعون إلى القوانين الوضعية الأجنبية التي وضعها الاستعمار، فهل يرضيك ذلك؟

– بالطبع لا يرضيني، ولكن هل هم من وضعها؟ أم أنهم جاؤوا فوجدوها موضوعة من قبل؟ وليس في قدرتهم تغييرها جملة وتفصيلاً، ثم إن الأحوال الشخصية عندكم أليست قائمة على أحد المذاهب الفقهية الأربعة؟

– الدكتور وقد ارتفعت وتيرة صوته قليلاً: يا مهاجر لا يغرّنك كل هذا، لقد ابتدعوا هذه المذاهب البدعية ليهجروا الكتاب والسنّة إلى أقوال الرجال، فترك الناس كتاب ربهم وحديث نبيهم ﷺ واتجهوا إلى أقوال غير المعصومين.

– ولكن أليست أقوال العلماء هذه من الكتاب والسنّة أيضاً؟! أليست هي قائمةً منذ أكثر من ألف عام وتلقّاها المسلمون في كل مكان بالقبول والعمل عليها؟ أليست بإجماعهم أصبحت تشريعاً أقرب إلى العصمة لأنها على جماعة "سبيل المؤمنين"، والحديث يقول بأن الأمة لا تجتمع على خطأ؟ عموماً أكمل ماذا فعلتم لمدير الجامعة؟

– أبو العتماء: لقد ترقبته لمدة يومين، إلى أن لحقته ذات يوم على دراجة وكنت مُلثّماً، وكان معه في سيارته زوجته وأولاده،

فما أن نزلوا من سيارتهم أمام بيتهم حتى أطلقت عليهم الرصاص فأرديتهم قتلى جميعاً.

– صُعق مهاجر من هول ما سمع: ماذا؟ قتلتهم جميعاً؟! لماذا؟ ما ذنب زوجته وأولاده؟! كيف تفعل ذلك بهم؟! من أفتاك بذلك يا فتى؟! ألهذا جئت هارباً من بلادك وتأمل الجهاد في سبيل الله؟! سبحان الله! لقد ذكرتني حين قلت بأنك تلثمت بموقف مرّ معي عكسه، **فأنا أغمضوا عيني يوماً بقماشة سوداء لكيلا أرى الحقيقة، وأنت أخفيت وجهك كله وأبقيت عينيك ورغم ذلك لم ترَ الحقيقة، فشتان بين الموقفين.**

– يبدوا أنك مغرر بك يا مهاجر، وسنعمل إن شاء الله على تعليمك العقيدة الصحيحة، أنا تعبت الآن وأريد أن أستلقي للنوم.

– هل أنتما متفقان دائماً على الأفكار هكذا؟

– سؤالك غريب يا مهاجر، ولا أعلم إلام ترمي، ومع ذلك فنعم نحن متفقان دائماً.

- مهاجر: صدقاني، سيأتي يوم لن تختلفان فيه فحسب، **بل سيقتل أحدكما الآخر**، حسناً وأنا كذلك نعست، سنجد وقتاً متسعاً بعد وصولنا لإكمال حديثنا.

وينتهي الحوار بهذه الكلمات من مهاجر، وسط ذهولهما مما قال، ويستسلم الجميع للنوم.

يستلقي مهاجر على فراشه، ليُبحر بتفكيره في المصيبة التي سمعها آنفاً، فيتساءل: **هل عندما يحلّ التكفير في الصدور، تتساوى العقول بين الجاهل والدكتور؟!**

ترى هل هما ضحايا لفكر القتل والإجرام؟ أم تُراهما نُزعت الرحمة من قلبيهما؟ حتى أنهما لم يتأثرا بمقتل طفولة بريئةٍ لا ذنب لها، فإن كانا كذلك، فما الذي نزع هذه الرحمة من قلبيهما؟!

بالتأكيد لن تكون غيرةً على الدين، لأن الدين كله رحمة وإنسانية، والدين لا يأمر بالقتل بلا ذنب، ولم يوكّل كل من هبّ ودبّ على أن يكون قاضياً وجلّاداً في آن واحد، يقضي على العباد بما توهمه أحلامه السفيهة من أحكام طائشة، لو أن كل

واحد من هذه النابتة، حدثاء الأسنان، ظن بأنه أصبح قاضي القضاة، فقام بتنفيذ ما يرى من منظور جهله بأنه هو العدل، فقتل وبطش على هواه، لأصبحت الدنيا غابة لكل صاحب هوى، فتعم الفوضى، وتنتشر البلبلة والجريمة في المجتمعات، آه.. **إن بطش الغلاة لا يقل جريمة عن بطش الطغاة، وكلهم يستحقون بطشة كبرى.**

أغمض مهاجر عينيه وتنهّد تنهيدة ألم وحسرة، ثم استسلم للنوم.

*****

يكمل مهاجر سرد قصة رحلته قائلاً:

ولم يمض أسبوعٌ آخر حتى قاربنا الوصول إلى هدفنا، وهي منطقة المثلث الحدودي الذي تشترك فيه ثلاث دول، في منطقة جبليةٍ وعِرة، مسبوقة بصحراء من الناحية التي قدمنا منها، لا يصل إليها أحد من هذه الدول الثلاثة، حيث يقع المعسكر السري للجماعة، ومع ذلك أظن أن في الأمر ريبةً، فكيف لثلاث دول أمنية عسكرية أن تدع مثل هذا المجمّع ينمو

ويترعرع بأمان؟! إنهم كمن يزرعون الشوك والحنظل والحشيش في مزرعة محوطة بالرعاية، لكي يستغلونه فيما بعد لغايات نجسة، وأهداف مدمرة.

ولكن قبل الوصول إلى المعسكر بحوالي عشرين كيلومتراً، وكنا على مشارف إحدى القرى الحدودية، وكان مراد قد تواصل مع أحد زملائه في المعسكر، فحذّره من الدخول إلى تلك القرية، لوجود تنظيم آخر كان على خلاف الجماعة التي ينتمي إليها مراد، حيث إنه وقع اشتباك بالرصاص بينهما قبل يومين.

ورغم أن هذا التنظيم أيضاً يُعتبر تنظيماً إسلامياً كما يزعم، بل وكانا هما الاثنان تنظيماً واحداً من قبل، إلى أن انشق كل واحد عن الآخر، بسبب الاختلاف على منصب أمير الجماعة، أو ربما يسمونه خليفة الجماعة، الذي يجب أن يقودهم جميعاً، وهذه المعلومات عرفتها فيما بعد من أكثر من مصدر في نفس الجماعة.

وحيث إن أمراء التنظيم الآخر يعرفون مراد حق المعرفة، جاء هذا التحذير من زميله، فلم يكن مراد يعلم عن تلك

الاشتباكات الأخيرة، حيث كان وقتها في مدينته، ولم يكونوا يتحدثون عبر الهواتف عن هذه التفاصيل خشية المراقبة.

في هذه الأثناء حاول مراد أن نخرج من أطراف هذه القرية التي أصبحنا واقعياً ضمن أراضيها وقد نفاجأ في أي لحظة بحاجز لهم أو دورية متنقلة، مما زاد في صعوبة أخذ الحيطة والحذر، ونحن في رابعة النهار ونبدو واضحين لكل من يراقب حدود القرية.

وبينما كنا نحاول التسلل بعيداً عن حدود القرية، إذ بأصوات الرصاص تنهمر حولنا، فاستلقينا أرضاً بسرعة، وصرخ فينا مراد بألا نخاف أو نتحرك، فبقينا هكذا حتى اقترب منا عناصر الدورية التي أطلقت الرصاص علينا، فما أن وقفوا بالقرب منا وترجلوا من سيارتهم، حتى وقف مراد صارخاً فيهم:

– كيف تطلقون علينا الرصاص هكذا؟! ماذا لو أصبتمونا.

– قائد الدورية: هذا أنت يا شيخ مراد؟! لم نكن نعلم أنك أنت؟ فنحن نعلم أنك في مدينتك منذ أكثر من شهر، ونعلم أنك لا تعرف ما الذي حدث بيننا، لقد اشتبكنا أمس الأول مع أمرائك

بعد أن ثبت أن لهم يداً في اختفاء بعض الآليات التي تخصنا، وهذا فيه خرق للمعاهدات التي بيننا، بألا يعتدي أحد منا على الآخر أو على جنوده وآلياته، وأنت تعلم ذلك، فهل يرضيك ذلك يا شيخ مراد؟ لقد قتلوا منا سبعة..

- يا أبا جنيد أنت تعلم بأنني لم أصل بعد إلى المعسكر ولا أعرف شيئاً عما تتحدث عنه، وهذا طبعاً لا يرضيني، ولكن لابد من التثبت أولاً قبل الدخول في اشتباكات ومعارك جانبية بيننا.

- هذا صحيح يا شيخ مراد، وبما أنك وصلت الآن فسنعطيكم مهلة تتشاور فيها مع زملائك الأمراء والشرعيين، ثم لابد وأن نجلس لننهي هذا الخلاف بيننا.

- حسناً، سنكمل طريقنا الآن وسأتصل بكم لاحقاً.

- ولكن يا شيخ مراد اسمح لنا أولاً أن نأخذ أحداً ممن معك رهينة حتى نستطيع التفاوض معكم، فبالأمس أسرت جماعتك أحد جرحانا ولم يرضوا بتسليمه لنا لمعالجته.

- رهينة؟! هل جننت يا أبا جُنيد؟! كيف تسمح لنفسك بأن تطلب مني ذلك؟! هذا سيشعل بيننا القتال..

– (مقاطعاً): هذا شَرطيَ الوحيد لأُخلي سبيلكم جميعاً، واعلم بأنني لم أخلِ سبيلكم إلّا لأنني أريد إظهار حُسن النوايا من طرفنا، وأنت تعلم أن هذا حق.

وفي ظلّ هذا الظرف الحرج كان الأربعة الذين مع مراد يستمعون لهذا الحوار وقد أصابهم الذهول من هول ما يسمعون ويشاهدون، إذ كيف لمجتمع المجاهدين أن يكون منقسمًا هكذا؟ بل كيف يكون بينهم اقتتال وقتلى ورهائن وسرقة آليات وخلافات على الإمارة؟! أين روح الجهاد ووحدة الصف؟! وقف الجميع مذهولين لا يكادون يُصدّقون، وكانت الصدمة الأولى لهم على أرض الواقع، بعكس ما كانوا يتخيلون أنهم سيجدون مجاهدين كالصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

– مراد: حسناً، اذهب يا أبا العتماء وسلم نفسك إليهم ولا تخف، سنستعيدك هذه الليلة، ولن نطيل عليك، ولا تخف فسيكرمونك ويوفرون لك سبل الراحة فأنت لست طرفاً في الخلاف بيننا.

وقف أبو العتماء مصعوقاً مما يرى ويسمع، وبصمتٍ وذهول، مشى نحو السيارة بخطىً ثقيلة، فأخذه أحدهم وأركبه بصندوق السيارة بعد أن قام بتفتيشه، وسط ذهول مهاجر

والدكتور وأبي الحوامد، ثم انطلقت السيارة في طريق، ومضى مراد ورفاقه في طريق آخر.

وأخيراً وبعد أن ابتعدنا قليلا عن القرية، إذ بسيارةٍ دفعٍ رباعي تصل إلينا لتحملنا، فنزل منها بعض الرجال الذين حيّوا مراد بلقب الأمير، وركبنا نحن الأربعة بعد أن فقدنا أيضاً أبا العتماء، فبعد أن كنا سبعة، فارقَنا زئيف وأبو السراج من قبل، والآن ها هو أبو العتماء ذهب، فبقينا أربعة، حتى بردت همتنا عن الجهاد، بعد أن رأينا ما رأينا من صراع بين من يُفترض أنه البيتُ الواحد، فأصبحت أبرد من الثلوج التي تملأ المكان حولنا، والبرد الذي رافقنا طوال الطريق.

يبدو أن المشي في الطين، وصعود الجبال، والخوف الذي رافقنا طوال رحلتنا، والجهد الذي زاد في إرهاقنا وتعبنا، قد نسيناه بعد هذا الموقف الأخير، ونحن الآن ننتظر شرحاً من مراد لكل ما حدث بعد أن نصل ونرتاح.

إن تُجّار الحروب من أهم أولوياتهم أن يُقسِّموا أي وحدة متجانسة إلى معسكرين متناحرين، أو أكثر، لذا يعملون على خلق أي خلاف بين أفراد البيت الواحد، فتجدهم يُثيرون

الخلافات العسكرية أو السياسية أو الدينية أو الطائفية أو الاقتصادية أو المذهبية، أو أيّ خلاف مهما كان مستواه، في سبيل أن يضمنوا استمراريتهم هم، بإبقاء الضعف والتفرقة بين الجميع.

*****

داخل معسكر التنظيم..

ها نحن أخيراً ندخل المعسكر، وبعد أن قام الحرس بتحية مراد بلقب الأمير، فتذكرنا تلك الدورية التي خاطبته بلقب الشيخ، أميراً وشيخاً؟! لا زلنا لا نعرف قصة هذه الألقاب.

كانت تفاصيل المكان وكثرة عدد المنتسبين، واللوحات الإعلانية التي كُتب عليه شعارات دينية، وأزياء المتواجدين الملفتة للنظر..، كل هذا كان قد شغل عقل مهاجر، وأثار دهشته وفضوله، حتى كأنه أنساه الحزن على مصير صديقيه، فهي مناظر لم تخطر له على بال، إنها دنيا جديدة يراها لأول مرة، كل شيء جديد وغريب وعجيب.

– هيا اقتربوا جميعاً إلى هذه المِظلَّة، لقد وصلتم.

تنبّه مهاجر لهذه الكلمات التي قطعت عليه شروده وخياله، وأيقظته من دهشته واستغرابه مما رأى، من مناظر لم يعتد عليها من قبل، لوحات جديدة وأماكن تدريب عسكرية.. إلخ.

وقف مهاجر على الأرض مذهولاً ينظر حوله: تلك لوحة كبيرة مكتوب عليها: (خلافة على منهاج النبوة)، ولوحات كثيرة مكتوب عليها: (جاهزون) ممم: ربما هذا شعار الملحمة الكبرى التي أخبرني عنها مراد، هناك مكتب مكتوب على بابه: (مكتب الانتساب) ممم.. ربما هذا مكتب التسجيل الذي سندخله الآن، وهناك باب مكتوب عليه: (مكتب الحسبة)، نعم! ربما هذا مكتب يتعلق بجباية الأموال، وذلك باب مكتوب عليه (المكتب الدعوي) فربما هذا يختص بالعلم الشرعي والإفتاء.

ثم وكأنه قد تذكر شيئاً، وبدهشة جديدة يتلفت حوله ويتمتم: أين ذهب مراد، لقد كان هنا، أين اختفى فجأة؟ لم ألاحظ أنه غادرنا!

– هيّا فلْتصْطَفّوا رتلاً واحداً بسرعة، لكي تقابلوا أمير المؤمنين. (هكذا صاح أحدهم).

التفت مهاجر سريعاً – وما زالت الدهشة لم تفارقه – نحو الشخص الذي صاح بهم آنفاً، رفع حاجبيه باستغراب وتمتم هامساً وقد عادت إليه التساؤلات السابقة: أمير المؤمنين!!؟ عن أي أميرٍ للمؤمنين يتحدث هذا؟ هل هو جادّ أم أنه يمازحنا؟ كيف يكون لأمير مؤمنين وجودٌ ولم يسمع به المؤمنون بعد؟ ثم هل سنكلمه الآن بالفصيحة؟ وهل يلبس عمامة وثياباً كتلك التي نشاهدها في الأفلام والمسلسلات التاريخية؟

أسئلة كثيرة تبادرت في ذهن مهاجر، يرفع حاجبيه تارة بكل عفوية ويبتسم تارة أخرى، ليس وحده كانت تصرفاته بهذه الحيرة، بل وكذلك الدكتور وأبي الحوامد كانت لهم نفس التصرفات.

اصطفّ الثلاثة في رتلٍ واحدٍ كما أُمروا، منتظرين الأوامر التالية للتحرك والتوجه، اقترب أبو الحوامد من مهاجر هامساً: ما هذا يا مهاجر؟ لم أكن أتخيل هذا؟ تبدو الحياة طبيعية جداً، ويبدو هؤلاء الناس مثلنا، لم أكن أتخيل أن كل

شيء طبيعي هكذا! أين الحصار والجهاد والمجاهدين الذين كنا نرى مقاطع الإصدارات عنهم؟

– هيا يا شباب تحركوا خلفي، (نادى بهم أحد الواقفين ممن يبدو أنه مسؤول في الجماعة، ثم مشى أمامهم متجهاً نحو الباب الذي كُتب عليه: مكتب الانتساب).

وقف الجميع بانتظار الأوامر، كان مهاجر أول الواقفين، اقترب منه ذلك الملتحي الملثم، والذي يبدو أنه موظف هنا:

– ما اسمك؟

– مهاجر.

– ما شاء الله، اسم على مسمى، اسمك مهاجر وها أنت حقاً هاجرت في سبيل الله، تعال معي يا أخ مهاجر.

دخلا إلى مكتب الانتساب، وقام المسؤول بإعطاء مهاجر ورقة وطلب منه أن يملأها ببياناته الشخصية، نظر مهاجر إلى الورقة، وإذ بها أسئلة نحو: الاسم، العمر، السكن سابقاً، التحصيل الدراسي، المهنة، الخبرات، سبب الانضمام... إلخ.

جلس مهاجر جانباً وأملى المطلوب منه في الورقة، ثم أعطاها للموظف المسؤول، الذي طلب منه أن يجلس في صالة يدخلها من باب مقابل للباب الذي دخل منه في البداية، ليستعد للقاء أمير المؤمنين.

في الصالة جلس مهاجر ينظر إلى اللوحات المعلقة على الجدران، بعضها آيات قرآنية، وبعضها تمجيد وثناء على الخلافة والخليفة، وأكثر اللوحات تحث على الجهاد والرباط وطاعة أمير المؤمنين، وكذلك اللوحات التي أصبحت الشغل الشاغل لمهاجر، والتي كُتب عليها: (جاهزون).

عاد مهاجر يتخيل شكل الخليفة الذي سيقابله، واللغة التي سيتحدث بها، بدأ يتذكر قصصاً قرأها قديماً عن الخلفاء في التاريخ الإسلامي، فجأة يقطع خياله صوت امتلأت الصالة بصداه: مهاجر، قم لمقابلة أميرنا "أبي الأنصار الإقليمي".

وقف مهاجر مرتبكاً، وتوجه إلى صاحب الصوت في آخر الصالة: أنا جاهز سيدي.

– لا تقل يا سيدي، ولكن قل يا أخي.

– حاضر، أنا مستعد يا أخي.

– هيا ادخل.

فُتح له الباب، دخل مهاجر، وإذا بشاب جَدّي الطلعة، لا يختلف عن بقية الشباب بشيء، إلا أنه يلبس عمامة سوداء، وثياب كتلك التي يلبسها الشباب في الخارج، إلا أنها سوداء اللون:

– السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

– وعليكم السلام ورحمة الله، تفضل يا أخ مهاجر، وعلى فكرة أنا الأمير أبو الأنصار الإقليمي، ولست بأمير المؤمنين، فأمير المؤمنين الآن بجولة جهادية خارج المقر، وأنا خليفته، تفضل بالجلوس يا أخ مهاجر.

بهذه الكلمات زالت رهبة اللقاء من قلب مهاجر، فهذا الأمير شاب مثله وإن كان يكبره ببضع سنوات، وهو أيضاً يتحدث بلهجة أهل البلد، وليس باللغة العربية الفصيحة، كما تخيله بأنه قادم من الزمن الماضي.

جلس مهاجر على أريكة مقابل الأمير أبي الأنصار: شكراً لك يا أخي، هل تسمح لي بسؤال؟

- نعم تفضل.

- ما هو دوري بالضبط، أقصد ماذا سأعمل عندكم؟ ومقابل ماذا؟ و..

- **(مقاطعاً):** مهلاً.. مهلاً يا أخي لا تعجل علي، كنت سأبدأ بشرح ما سألتني عنه قبل أن تسألني، ولكن يبدو أنك عجول، كما قال تعالى: **(خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ).**

- لا تؤاخذني يا أميرنا فربما أثّر عليّ الإرهاق من السفر الطويل، فنحن على سفر منذ أسبوعين.

- نعم لقد علمت ما حدث لكم في الطريق، لا عليك يا أخي، سأخبرك بكل شيء.

وبدأ الأمير يشرح له عن الجهاد وقيمته وأنواعه، وعن الخلافة الإسلامية وعن خليفتهم وواجب الانصياع له، وتقديم السمع والطاعة له وإن جلدك وأخذ مالك، وهكذا، ثم عرج به عن استعداداتهم للملحمة الكبرى القادمة التي ستفصل بين أهل الحق

وأهل الباطل، فيصبح الناس فسطاطين، فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، وكان هذا الجانب من الحوار هو ما شدّ مهاجر إليه أكثر.

لم يكترث مهاجر في البداية لفحوى الحديث، ولكنه عند الحديث عن الملحمة، تنبه للكلام فهو ينتظره بشوق، فما إن انتهى الأمير من كلامه، حتى بادره مهاجر بالسؤال (بلهفة):

– لدي سؤال يشغلني، لو سمحت لي أن أسأل.

– تفضل، بكل سرور.

– لقد تحدثت عن الملحمة الكبرى التي ستفصل أهل الحق عن أهل الباطل في فسطاطين، وسؤالي هل سيظهر المهدي في هذه المرحلة؟ ومتى سيظهر؟

– سؤالك جميل يا مهاجر، ويبدو لي أنك مهتم بهذه المسألة.

– في الحقيقة نعم، أنا مهتم جداً أن أعرف هذه المسألة.

– (بحركات تعبيرية مبالغ فيها): حسناً، لا عليك، سأخبرك بالتفاصيل، نحن نقوم الآن بالتحضير لتلك الملحمة العظيمة،

والقادمة بلا شك، ولكن لابد وأن نخوض بعض المعارك التمهيدية قبلها، والتي لا تقل أهمية عن الملحمة الكبرى، لأن هذه المعارك هي ما سيُمهد لظهور المهدي، ورفع راية الخلافة العظمى، التي ستنطلق من هذه الأرض المباركة إلى جميع أنحاء العالم، وسيكون لك شرف الانضمام لها من الآن، بشرط أن تبايع أمير المؤمنين على الولاء المطلق له، وعلى نصرته بنفسك ومالك، حتى تكون جندياً من جنود المهدي، وإلا إن لم تبايع وتقدم له واجب الولاء والسمع والطاعة، فلن تكون من جند المهدي وفسطاطه، بل ستكون في فسطاط المنافقين والعياذ بالله تعالى، فاحذر يا أخي من الوقوع في هذا الشرك.

– (شعر مهاجر بأن هذا الأمير يقوم بعمل ترويجي، كهؤلاء الذين يقومون بالترويج لسلع تجارية في الإعلانات التلفزيونية، ولكنه كتم هذا الشعور قائلاً من غير قناعة تامة): نعم.. نعم أيها الأمير، لابد من البيعة والولاء والسمع والطاعة لأمير المؤمنين، والجهاد تحت رايته حتى يظهر المهدي... والآن يا أخي ماذا عليّ أن أفعل؟

– (بجدية وصرامة): سيأخذك الإخوة إلى غرفتك ليسلموك لباسك الشرعي، (كاد مهاجر أن ينفجر ضاحكاً عند قوله لباسك الشرعي، وهل نحن نساء؟ هكذا تساءل)، ولكي يسجلوك في المكتب الدعوي لكي تتعلم ديننا الصحيح، كيلا تقع في الشّرك والبِدَع، وسيعلمونك على السلاح، ثم سيتم فرزك في المكان المناسب، فلا تقلق ولا تتعجل، وحياك الله في دولة الخلافة الإسلامية، تستطيع الانصراف الآن.

قام مهاجر فشكر الأمير واستأذن بالانصراف، وخرج ليستقبله الرجل الذي كان معه في الخارج ليأخذه إلى مكان آخر في المعسكر وهو يتمتم في نفسه: ترى كم مرة ذكر كلمات الشرك والكفر والبدع؟

وهكذا، بدأت الأيام تمرّ سريعاً على مهاجر، الذي بدأ يتنقل بين التدريب على السلاح وتلقي العلم الشرعي من وجهة نظر الجماعة، وهو يشعر كل يوم أكثر فأكثر بأنه لا وجود للملحمة الكبرى في هذا الزمان، وخاصة مع مثل هؤلاء، حتى أنه نسي ما حدث لصديقه زئيف، وكان يلتقي برفاق الطريق،

فهذا أبو الحوامد قد وضعوه في المكتب الإعلامي، ليستفيدوا من خبرته.

– كيف أصبحت خبرتك الإعلامية يا أبا الحوامد؟

– الحقيقة نحن نمتلك أجهزة وأدوات تكنولوجيّةً متطورة جداً، ونستطيع إخراج الأفلام المتطورة، والتي تنافس كبرى الدول المتقدمة في مجال التصوير والإخراج والبرامج.

– ما شاء الله، ومن أين نشتري كل ذلك؟

– في الحقيقة لا أعلم، (يميل برأسه إلى مهاجر ويهمس): ولا يُسمح لنا بالسؤال عن ذلك، فلا تسأل يا صديقي.

– نعم فهمت، لن أسأل مرة ثانية، هل تذكر يوم تحدثنا عن أهمية علم الإعلام في جهادنا؟

– نعم أتذكر ذلك، لقد كنت محقاً بكلامك يا مهاجر، الآن أنا مقتنع تماماً بما قلته لي، فلو أنني قد أكملت دراستي وازدادت خبرتي الأكاديمية لكنت الآن أكثر معرفة وخبرة في عملي.

– هل يوجد أي خبر عن أبي العتماء؟

– كلا، لم أسمع شيئاً بعد.

كان مهاجر في كل يوم يجالس مراد بعض الوقت، فيتحدثان عن مجريات ما يمر به مهاجر يومياً في المعسكر، ويشحذ من همته، ويحفزه أكثر على الصبر والولاء والتعلم، وكأنه يقوم بعملية غسل لدماغٍ أبيض لا تجارب سابقة له في الدنيا، وكان مهاجر دائماً يُبدي له كل أنواع التعاون والقناعة والولاء والرغبة في التعلم والتدريب، ولم يكن يعترض على شيء، بل ربما أحياناً يشارك في إقناع وتصبير بعض الشباب الجدد للانخراط في تعليمات الجماعة ومشاريعها ونظراتها وتوجهاتها.

إلا أنه كان كثير السؤال عن المهدي وعن الاستعدادات للملحمة الكبرى على كافة الأصعدة، حتى إنه أحياناً كان بعض القادة والأمراء والشرعيين يمتعضون من كثرة أسئلته عن هذا الموضوع، خاصة وأن بعض الأسئلة لا إجابة عليها، مثل متى سيظهر وأين وكيف.. وهكذا.

وفي هذه الأثناء كان أبو العتماء قد طالت مدته عند التنظيم الآخر، المحارب للتنظيم الذي فيه مراد ومهاجر، ولم يشعر بأن أحداً من طرف مراد قد سأل عنه أو اهتم به، وقد

استقبله ذاك التنظيم استقبالاً جيداً وأكرموا نزله، وكانوا يلحون عليه بين الفينة والأخرى البقاء عندهم ومبايعتهم، مقدمين له الإغراءات المناسبة، كالراتب والمكانة والزوجة، مع تكرار محاولات غسيل الدماغ التي يقومون بها معه، من خلال إشعاره بأنه في جهاده الذي جاء من أجله لمحاربة أعداء الإسلام، تحت راية التوحيد مع المجاهدين الأبطال، ثم بدؤوا يشركونه ببعض معاركهم حتى بدا وكأنه انخرط في التنظيم مع الزمن، ونسي الدكتور الذي جاء معه.

في البداية لم يكن يجول في خاطر أبي العتماء سوى أنه قد فارق شيخه وصديقه الدكتور أبا المغارب، ولكن بعد أن زوجوه بفتاة من قِبلِهم، وشاركهم الجهاد، بدأ ولاؤُه يستقر لهذا التنظيم.

ومع مرور الوقت، أصبح أبو العتماء يتكيّف مع شباب التنظيم الذي هو فيه، ويجد في بعضهم صداقات بدأت تتطور تدريجياً، خاصة بعد أن جعلوه أميراً في بعض المعارك ضد من يعتبرونهم أعداء الإسلام، ما جعله ينخرط في التنظيم ويندمج أكثر من ذي قبل.

حاول مراد مع الأمراء الكبار في التنظيم، أن يتوسط عندهم ليعيد أبا العتماء كما وعده، ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل، الأمر الذي أزعج الدكتور أبا المغارب جداً، وحاول هو الآخر إقناع الأمراء فلم يستجيبوا له، خاصةً بعد تعيينه مُدرّساً شرعياً في مراكز التنظيم، لكنه بطبيعة الحال ليس له كلمةً قياديةً مؤثرةً في سياسة التنظيم الخارجية، والتي كانوا جميعاً يجهلونها كما يجهلون من هو الأمير الفعلي لهم، والذي أصلا لا يعرفون شكله ولم يلتقوا به ولو لمرة واحدة، ومع مرور الوقت شيئاً فشيئاً بدأت تتضاءل هذه القضية مع الانشغالات الأخرى والأكثر أهمية، حتى أصبحت من المنسيات، وتعود الدكتور أيضاً على طاعة أوامر التنظيم، وتزوج الفتاة التي اختاروها له، فزاد ولاؤه وانتماؤه بهم، ونسي أمر أبي العتماء.

*****

وتمرّ الأيام وتمضي الشهور، وطبعاً في هذه الفترة من الانخراط التام في المعسكر مع الجماعة، تعرف مهاجر على العديد من الشباب، ومن جنسيات مختلفة، ومنهم من غيْر

العرب، وعرف قصصهم وكيفية انتسابهم وأسباب انضمامهم، حتى علِم كل صغيرة وكبيرة عن أكثرهم.

وفي أحد الأيام، وأثناء الاستراحة بعد تدريب شاق، جلس مهاجر إلى جانب أحد الزملاء ممن جرى بينهم نقاشات ومؤانسة من قبل، بدأ الحديث بينهما دون أي هدف، نحو هل تعبت؟ اليوم كان التدريب شاقاً أكثر.. وهكذا.

ثم بدأ يأخذ منحىً أكثر خصوصيةً، وذلك حين سأل مهاجر زميله ما الذي جاء به إلى هنا من مسافات بعيدة، فهو من دولة من الدول التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي السابق، وكانت كنيته أبو عُمروف، الذي أجاب وقد بدت الحسرة والندم على ملامح وجهه وبين طيات كلامه:

– لقد كنت طالباً في كلية العلوم السياسية، ولم يخطر ببالي أبداً أنني في يوم من الأيام سيصل بي الحال إلى هنا، وكان لي زميل من إحدى الدول العربية، وكان شقيقه هنا في هذا المعسكر.

سأخبرك يا أخي مهاجر ببعض الأسرار لأني وثقت بك ورأيت فيك المثقف والباحث عن الحقيقة من غير أن تتأثر بالشعارات والخطابات الحماسية.

– بكل سرور يا أخي وأشكرك على هذه الثقة، تفضل.

– بدأ زميلي العربي هذا يُطلعني على الرسائل والصور التي يرسلها له شقيقه من المعسكر، بالإضافة إلى إصدارات المكتب الإعلامي هنا عن توجهاتهم وعملياتهم وشعاراتهم، وكان أكثر ما يبهرني فيهم هذه الشعارات، مثل **(خلافة على منهاج النبوة)**، **(جاهزون للملحمة الكبرى)**، **(نحن أنصار المهدي)**، وهكذا.

وكان زميلي يشرح لي ما لا أفهمه ويُترجمه لي ويُرغّبني بهم، ويحكي لي عن المهدي وعدله وجهاده، إلى أن اقتنعت بالمجيء معه إلى هنا لكي أشارك في الملحمة الكبرى مع المهدي، على أساس أن هذه الملحمة ستقام فوراً بعد عدة معارك صغيرة، لجمع صف المجاهدين وتدريبهم حتى يكونوا جاهزين للجهاد مع المهدي.

طبعاً كنا أنا وزميلي في السنة الأخيرة من الكلية، فما أن تخرجنا حتى تدبرنا أمورنا، وبمساعدة شقيق زميلي الموجود هنا، وصلنا أخيراً بعد رحلة من العناء والمشقة، والتنقل من بلد إلى آخر.

ولما وصلت إلى هنا بدأت أكتشف – كما ترى – أن الواقع مختلف تماماً عما قيل لنا، وعما يصدره المركز الإعلامي والدعوي، فهناك أمورٌ – أخي مهاجر – لم ترها أنت بعد، وحين تراها ستتفاجأ وتندم على قدومك، وتحاول الفرار والهرب.

– لا أخفيك أنني فعلاً بدأت ألاحظ ما تقول، نسأل الله أن يعيننا على الحق وألا نتورط في دماء الأبرياء.

لم يشعر مهاجر بجديدٍ في كلام زميله، فهو قد لاحظ كل ما قاله له، هناك مخالفات كبيرة تقع بلا أي مبالاة، وليس آخرها القتل بلا رحمة، على كل مخالفة لمنهج الجماعة، وليس أولها إقامة ما يسمونه حدوداً شرعية ما أنزل الله بها من سلطان، وأهم من كل ذلك أن لهم أولويات مختلفة عن أولويات المسلمين عامة.

في مساء اليوم التالي أعلن مكتب القضاء الشرعي عن وجوب التواجد في إحدى الساحات، لمشاهدة قيام حدّ تعزيري على أحد الجنود، لأخذ العبرة من مشهد عقابه، وعدم القيام بما قام به من معصية استوجبت التعزير جلداً.

وفي الوقت المحدد فعلاً، حضر الجميع، وجاء أحد ممن يدعون بالقضاة الشرعيين، وجيء بالمذنب وهو مكبل بالأغلال في يديه، ثم وضعوه في وسط الساحة، ووقف بجانبه القاضي والجلاد، فبدأ القاضي بتلاوة البيان، بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

– اتباعاً لشرعنا الحنيف، وبعد أن اعترف المُذنب بمعصيته التي قام بها، قررنا قيام الحد عليه تعزيراً ثمانين جلدة، وقد ألقينا القبض عليه وهو يشرب سجاير الدخان (التبغ).

فصاح أحد رجال القاضي بصوت عالي:

– تكبير، (فعلا الهتاف بالتكبير، ثم كرر): تكبير، (وهكذا أكثر من عشر مرات وكأنه يقود سيمفونية صوتية هتافية لتكون كخلفية مناسبة لمقطع الجلد على ظهر الشاب).

– في هذه الأثناء اقترب مهاجر من أبي عمروف مستفسراً بهمس: وهل التدخين يستوجب الجلد شرعاً؟ من أين لهم بهذه الفتوى؟!

– فنظر إليه أبو عمروف نظرة الذي يؤكد له ما أخبره به أنفاَ، ثم حرك رأسه وشفتيه كأنه يحوقل.

اقترب مهاجر من الدكتور أبي المغارب مستفسراً عن الحكم الشرعي لقيام هذا الحد، فرد عليه الدكتور باقتضاب وكأنه على غير قناعة بما يقول:

– انه اجتهاد القضاة يا مهاجر، ألا يحق لهم الاجتهاد؟!

لم يكن الموقف السابق من أكبر المواقف وأهمها، بل إنما هو مجرد موقفٍ عابرٍ من ضمن سلسلةٍ من المواقف التي تحتاج إلى تفسيرات وأدلة، كان مهاجر لا يستطيع مواجهة مراد بها، أو حتى غير مراد، خشية أن يفسد على نفسه أمراً بدأ يلوح له ويريد أن يفاتح به مراد، فيريد أن يضمن موافقته بسهولة ومن غير أي شك أو ريبة.

ففي أحد الأيام وأثناء التدريبات، جاء الأمر فجأة بالاجتماع فوراً للخروج في مهمة مستعجلة خارج المعسكر، اجتمع الجميع على عجالة، وقاموا بالتوجه إلى السيارات الكبيرة الحاملة للجنود، وذلك بناء على الأوامر، توجهت السيارات بسرعةٍ خارجةً من بوابة المعسكر، ومن غير أن يعلم أحد من الجنود ما هي طبيعة المهمة، ولكن يبدو بأنه أمر جلل يستحق غزوة مباغتة.

في الطريق أخبروهم عن مظاهرات في البلدة المجاورة للمعسكر ضد نظام بلدهم، وهم يحملون أعلاماً يعتبرونها رمزاً لثورتهم، فكانت الأوامر – التي من المفترض أنها جهادية – أن ينزعوا تلك الأعلام من أيدي الثوار الذين يحملونها، ورفع راية الجماعة عوضاً عنها، رغم أنف الجميع، مع إنزال العقوبات بمن يرفض من الناس أو يعترض، وتصويرهم وهم يحملون هذه الرايات السوداء، لبثها على أنها مطالبٌ شعبيةٌ تحت رايات جهاديةٍ.

تفاجأ البعض من طبيعة هذه المهمة، وكان من المتفاجئين مهاجر، (فأي أهمية لهذه القضية حتى يفتعلوا كل

هذه التحركات المستعجلة وهذه الأوامر!؟ وكأننا متوجهون إلى غزوةٍ جهادية مستعجلة، وما ذنب هؤلاء الذين سنأخذ راياتهم منهم ونفرض عليهم راياتنا؟ وبأي حق؟ يا لها من أوامر صبيانية طائشة، **متى سينجلي هذا البطش، بطش الغلاة؟!**)، هكذا تمتم مهاجر في نفسه.

بدأ مهاجر يتذمر من هذه المواقف الإجرامية: (ما هذه الأوامر التافهة والغريبة التي ليس لها علاقة لا بالملاحم ولا بالمهدي؟ ولا حتى بالجهاد؟ ما لنا نحن ولهؤلاء الناس؟! ما نقوم به ليس له أية علاقة بالفتوحات الإسلامية، يبدو أننا تورطنا في عصابة تتاجر بالدين، وتبطش بالناس وتسفك الدماء بلا وجه حق، ولابد من سرعة التصرف).

وبشكل همجي، نزل الجنود بسرعة من السيارات وبدؤوا بمهاجمة الثوار من أهل القرية وضربهم بلا رحمة ولا عدل، وسلبوا منهم الأعلام التي بأيديهم، حتى أفسدوا عليهم مظاهرتهم وفضّوها بشكل إرهابي دموي، غير مكترثين بالنساء ولا بالأطفال المتواجدين في تلك المظاهرة، ثم أسروا بعض الشباب الذين

قاموا بمقاومتهم والاعتراض على تواجدهم، وعادوا أدراجهم إلى معسكرهم.

وصل صيت هذه العملية الهجومية إلى أمراء التنظيم الآخر، المنافس لتنظيم مراد، الذي فيه أبو العتماء، فما كان منهم إلا أن أعلنوا رفضهم لهذه الهجمة الهمجية الإجرامية، متوعديهم بالرد القاسي في أقرب فرصة، فهذه القرية تعتبر محمية من جنود هذا التنظيم وتابعة له، وبدؤوا بالفعل بمراقبة تحركات ذلك التنظيم لمباغتتهم في اللحظة المناسبة.

بعد مرور يومين على هذه العملية، وعند خروج أحد أمراء التنظيم ومعه الدكتور أبو المغارب وبعض الجنود في مهمة لشراء بعض الكتب من المدينة، كان التنظيم الآخر يتصيد وينتظر الفرصة المناسبة للنيل من تنظيم مراد كردٍّ على عملية فضّ المظاهرة وأسر بعض شباب القرية التي تعتبر نوعاً ما مقراً لهذا التنظيم وأهلها في حمايتهم.

انطلقت السيارة التي فيها الدكتور ورفاقه، وبينما هم في الطريق، تفاجأ السائق بثلاث سيارات تخرج عليه فجأة من خلف سواتر ترابية، وكأنه كمين مدبّرٌ من قَبل لاصطيادهم، محاولين

إجباره على التوقف الفوري تحت تهديد بعض طلقات الرصاص التي بدأت أولاً في الهواء، ثم تحولت إلى اشتباك مع تلك السيارة، وكان أبو العتماء قد فتح عليهم الرشاش.

حاول السائق بدايةً الالتفاف مبتعداً عنهم، وقام رفاقه بإطلاق الرصاص على تلك السيارات الثلاثة، فحدث الاشتباك الذي لم يدم طويلاً، فقد أصيب الدكتور أبو المغارب في كتفه إصابة بالغة، كما أصيبت إحدى إطارات السيارة، مما أجبر السائق على التوقف، وأجبر رفاقه على الاستسلام.

وقفت سيارة الدكتور، وأُحيطت بالسيارات الثلاثة، التي نزل منها الجنود مسرعين نحوهم، وقاموا باستخراج من في السيارة وإلقاءهم على الأرض بسرعة مع الصراخ والتهديد، وتوثيق أيديهم إلى الخلف، وكانت المفاجأة غير متوقَّعة.

فقد كان من ضمن الذين تم إلقاؤهم على الأرض الدكتور أبو المغارب، وهو مصاب في كتفه إصابة بالغة، وكان من ضمن الجنود الذين ألقوا القبض عليهم: أبو العتماء، فتفاجأ كل واحد منهما بوجود الآخر، بعد مرور لحظات قليلة، كانت

الصدمة الكبرى لهما، فلم يتوقع أحد منهما أن يأتي يوم عليهما يكونان فيه أعداءً لبعضهما، أو في مواجهة ضد بعضهما.

ولكنه الولاء الأعمى، حين يستحكم بالإنسان، مهما كانت درجة ثقافته أو الشهادة التي يحملها، فإنه يُغلق العقول ويسلب الأفهام، وينزع الرحمة من القلوب، فلا يعد هناك كبير فرق بينهم وبين الوحوش الكاسرة في الغابات.

صرخ أبو العتماء بصوت خرج من قعر رأسه أرعب الجميع بلا استثناء: الدكتور؟! إنه الدكتور أبو المغارب!

فتسمّر الجميع في أماكنهم مذعورين من صوت أبي العتماء، لا يعرفون القصة، ومَن هذا الدكتور الذي تسبب بصعق أبي العتماء؟ حتى صرخ أمير المجموعة التي ينتمي إليها أبو العتماء: ما الأمر يا أبا العتماء؟ ما بك؟ أي دكتور هذا؟

– أبو العتماء: إنه صديقي وشيخي الدكتور أبو المغارب الذي جئنا سوية من بلادنا في رحلتنا إلى هنا، والذي افترقنا قبيل وصولنا قبل عدة أشهر، فانضم هو إلى تنظيم مراد، وأنا إلى

تنظيمكم، حتى نسينا هذه القصة من عدة شهور مضت.. سبحان الله فهذا قَدَرنا.

- في هذه اللحظة تدفقت الدموع في مقلتي الدكتور مع ما أصابه من ذهول وصدمة من هول الموقف، الذي لم يكن يخطر له على بال، وهو ملقىً على الأرض عاجزاً أن يقوم ليأخذ صديقه ورفيق دربه بالأحضان، وقد أضناه الشوق له ولرؤيته ومعرفة أخباره، ما هذا؟ كيف وصلنا إلى هذا الموقف؟ أسئلة كثيرة بدأت تلوح في ذهن الدكتور، في موقف لا يقل صدمة عن مشاعر صديقه.

وتذكر الاثنان كلمة مهاجر لهما يوم كانوا في رحلتهم إلى هنا حين قال: **سيقتل أحدكما الآخر.**

إلى أن هرع أبو العتماء ليرفع صديقه الدكتور من على التراب ويحتضنه غير آبهٍ لأميره ولا لطبيعة الموقف، خاصة أن دمائه قد ملأت ثيابه ووجهه.

إنها العفوية، التي حرّكت فجأة مشاعر الاثنين فاحتضنا بعضهما وقد ارتفع صوت نحيبهما، وسط ذهول الجميع، فالذين

على الأرض اعتدلوا قليلاً وهم يشاهدون الموقف مندهشين، وكذلك الذين نزلوا من السيارات الثلاثة وقفوا مندهشين، بل لقد تدفقت الدموع في أعين أكثر الواقفين، من هول وصعوبة الموقف.

ارتبك الجميع ولم يعد أحدٌ منهم يعرف ما الذي يجب عليه أن يتصرفه، وسط نحيب وبكاء الاثنين، ودماء الدكتور التي امتزجت بدموع أبي العتماء.

حتى تكلم الأمير مخاطباً أبا العتماء: حسناً يا أبا العتماء، توقف وأوقف صديقك، نحن نقدّر لكما هذه المشاعر التي أثّرت فينا جميعاً، هيّا احمل صديقك لنعالجه عندنا.

فردّ أحد أفراد التنظيم الآخر على الفور: بل دعونا نحمله إلى المشفى الذي عندنا فلدينا أطباء مهرة وأجهزة متطورة..

لم يتحرك أبو العتماء، وبقي يبكي وفي حضنه الدكتور، فنادى عليه أميره، فلم يستجب له، وسيطر الصمت والذهول على الجميع، حتى لاحظ أحد أفراد تنظيم مراد بأن الدكتور قد

أغمض عينيه وسقطت يداه بجانبه، فأسرع ليستكشف الأمر، فأراد تحريكه فإذا به قد فارق الحياة، مما زاد من صعوبة الموقف على أبي العتماء الذي صرخ قائلاً: أنا من قتله، نعم أنا الذي قتل صديقه ورفيق دربه، ربح البيع يا صديقي ربح البيع، **لقد صدقت نبوءة مهاجر**.. (ثم انهمر في نوبة بكاء لم يُر مثلها، حتى وقع مغشياً عليه، فقام رفاقه بحمله، وقام رفاق الدكتور بحمل دكتورهم، وركب كل منهم سيارته، وسط ذهول وحزن لم يشهدوا له مثيلاً من قبل).

في المعسكر عند العودة، يفتش رفقاء الدكتور عن مهاجر ليخبروه بما حدث، بعد أن سلموا الجثة للقيادة وأخبروهم بما حدث، يتفاجأ مهاجر من القصة فيخرّ باكياً.

في اليوم التالي وقد خيّم الحزن على المعسكر عامة، وعلى مهاجر خاصة، وجاء من شهد الموقف إلى مهاجر معزين.

– أحدهم: أخي مهاجر الحقيقة يتملكنا جميعاً سؤالٌ حيّرنا، ونريد إلقاءه عليك.

– ما سؤالك؟

– لقد سمعنا أبا العتماء وهو يبكي فكان من ضمن ما قاله: لقد صدقتْ نبوءة مهاجر. فما قصة هذه النبوءة؟

– هنا تذكر مهاجر الموقف، فغطّ في بكاء حتى أشفق عليه رفاقه، وبعد أن هدأ قليلاً قال: إن الأمر جلل، وما توقعته حدث فعلاً..

– ولكن كيف عرفت ذلك؟

لم يُجب مهاجر على السؤال، وبقي مُحدّقاً في الأرض ودموعه تنهمر على خديه، فتارة يرتفع نشيجه وتارة يحوقل ويستغفر، مما بث بين الجميع هدوءاً وسكينة.

*****

في المعسكر الآخر، وبعد أن خرج أبو العتماء من حزنه على صديقه، وبدأ يعود إلى نشاطه، أحد قادته يطلبه إلى مكتبه:

– لقد تمّ تكليفك بمهمة في غاية الأهمية يا أبا الحوامد، يجب عليك التجهّز فوراً لمهمة عاجلة مع بعض رفاقك، وبسرعة

قصوى، لأن طبيعة المهمة لا تحتمل التأخير، تجهزوا ثم نخبركم بطبيعتها.

– في أسرع وقت سنكون جاهزين.

وبعد أن تجهّز أبو العتماء ورفاقه، وهم لا يعلمون طبيعة المهمة التي سيقومون بها، فالمعتاد أنهم لا يخبرونهم بطبيعة المهامّ ليشعروهم بأنها خطيرة جداً، وحفاظاً على أسرار المهمة واحتياطاً لإنجاحها.

في البداية اعتقد أبو العتماء بأن المهمة هي مهاجمة موكب ما لتنظيم مراد مثلاً، أو ما شابه ذلك كمهاجمة القوافل التجارية للاغتنام.

وفي اللحظة الأخيرة، وبعد أن ركب الجميع سياراتهم، وحملوا كامل أسلحتهم وذخيرتهم، وقبل الانطلاق بلحظات، جاءت الأوامر، أمير التنظيم:

– عليكم بالتوجه فوراً إلى مقبرة القرية التي نقوم بحمايتها، وهدم أحد القبور الشركية فيها وتسويته بالأرض، إنه قبرٌ أثَرِيٌّ لأحد الأولياء الصالحين، ووقد سمعنا أن البعض يأتيه فيتوسل به، مما

يعرض الناس للشرك والبدع، فيجب تسوية القبر بعد نبشه وإخراج من فيه، لكي يكون عبرةِ لمن يتوسلون به، وانشروا خبراً مفاده أن من سيفعل ذلك بعد الآن سيقوم التنظيم بإقامة الحدّ عليه.

انطلق الجنود بقيادة أبي العتماء لتنفيذ المهمة بكل نشاط وهمة، رافعين شعارات التكبير، حتى وصلوا إلى المقبرة المذكورة، فقاموا بالبحث عن القبر المطلوب حتى وجدوه، فبدؤوا بإعمال الفؤوس والمهدات فيه، حتى همّوا بنبشه.

وبينما هم منفعلون ومندمجون بعملهم بجدية كاملة تامّة، ضرب أحدهم رفيقه بالفأس خطأً من غير قصد، فأرداه قتيلاً في لحظته، لأن الفأس جاءت بالرأس، مما اضطرهم إلى سرعة إسعافه وانهاء المهمة، والعودة إلى المعسكر.

وفي المعسكر نال الجميع التوبيخ على فشلهم بهذه المهمة الجهادية الكبيرة، وانتشر الخبر في القرية، فزاد تعلق الناس بصاحب القبر.

ولما سمع مهاجر بهذه القصة ابتسم ابتسامة الحزين على ما آلت إليه سمعت الجهاد، وقال:

قد قالها "**أينشتاين**" قديماً: (اثنان لا حدود لهما: الكون والجهل البشري)، ما أمكر القادة وما أجهل الأتباع، فبدل أن يعملوا على بناء حضارة الأَحياء، شغلوهم بهدم قبور الأموات، **يا لِبطش الغلاة، ألم يأنِ لهم أن يهتدوا، أو لِينالهم من الله بطشة كبرى!؟**

*****

في المقابل، وبعد مرور شهر على حادثة مقتل الدكتور، وقد خفّت وطأة المصيبة والحزن على قلوب الجميع، وبينما مهاجر يُعِدّ عشاءه في مطبخه التابع لمسكنه الخاص به، طرق أبو الحوامد باب السكن المكون من "كرفان" من "الكيربي" مسبق الصنع، صاح مهاجر: تفضل يا أبا الحوامد، وبعد أن دخل عزم عليه مهاجر مشاركته في تناول العشاء، فشكره أبو الحوامد وذكر

له بأنه قد سبقه وتناول العشاء قبل قليل، فجلس مهاجر يأكل ويتجاذب أطراف الحديث مع أبي الحوامد:

- ألست تذكر يا أبا الحوامد عندما أخبرتك منذ مدة بأننا نعدّ لمعركة ضد إحدى الكتائب المسلحة بالمنطقة، ممن لا يسمون بالإسلاميين مثلنا؟ سنقاتلهم فقط لأنهم داهموا واغتنموا – كما يقال – ثكنة عسكرية تابعة لجيش النظام، وأن معركتنا معهم لنسلب ما اغتنموه وإعادة السيطرة على نفس الثكنة؟!

- نعم أتذكر يا مهاجر..

- وقتها سألتك لماذا سنقاتلهم، فلا يوجد سببٌ مقنعٌ لكي يسقط منا أو منهم قتلى، فهم مسلمون مثلنا وإن كانوا لا يطلقون على أنفسهم اسماً اسلامياً، ولا يوجد خلاف بيننا، أليس كذلك؟

- نعم يا مهاجر، ويا ليتها توقفت عند هذا الحد، بل بعد أن خضناها واستلبنا فيها تلك الثكنة العسكرية، خضنا معركة بعدها مع النظام، وجاءت الأوامر بالانسحاب وتسليم تلك الثكنة ذاتها، وما أزعجني وأثار الريبة في نفسي، أننا كنا منتصرين، فلماذا

نستسلم؟ ما الحكمة من تسليم هذه الثكنة بما فيها من أسلحة وصواريخ، ثم إعادتها للنظام؟

- وقتها أخبرتك يا أبا الحوامد بأنه لن يُسمح لنا بحيازة هذه النوعية من السلاح، وإلا فإننا قد أصبحنا من مصاف القوى التي يُعمل لها حساب في المنطقة، فالأمر مُدبّر، وما نحن إلا بيادق يتم اللعب بنا واستعمالنا لغايات لا نعلمها، ومن قِبل جهات لا نعرفهم.

- الأمر أصبح لا يطاق يا مهاجر، نحن نُخدع كل يوم..

- بل قُلْ ونقتل بعضنا كل يوم، كما قتل أبا العتماء صديقه بالخطأ، إنه ليس خطأ يا أبا الحوامد، بل كل قتالنا خطأ في خطأ، نحن في فتنة ولسنا في جهاد، ولابد العمل على انهاء هذا الأمر.

*****

وبينما هما في حوارهما مندمجان، إذا بجَلَبَة في الخارج، وأصوات مختلفة، وإذا بالإذاعة الميدانية تذيع نداءً عاجلاً

بضرورة الاستعداد الفوري وحمل السلاح، وأخذ كافة الاحتياطات الفورية.

خرج الاثنان من فورهم لاستكشاف الأمر، وإذا بطائرات عسكرية تُحلّق فوق المعسكر، ولكن لم يكن أي إطلاق نار من كلا الطرفين.

ثم جاءت الأوامر بإخراج عدد من السيارات الثقيلة إلى خارج المعسكر، من غير أن يفهم أحد لماذا، وما هي ساعات قليلة، حتى تم إعلان انتهاء الاستعداد الفوري وعودة الهدوء.

كان مهاجر من ضمن الجنود الذين خرجوا مع السيارات وعادوا إلى المعسكر، وفور عودته إلى مسكنه، عاده أبو الحوامد ليستطلع الأمر:

– ما الأمر يا مهاجر، ما أسرع ما طُلب منا الاستعداد ثم أُعلن عن انتهاء كل شيء! ما القصة؟

– (يضحك ضحكة الواثق): لن تصدق يا أبا الحوامد ما الذي حدث، سأخبرك ولكن على أن يبقى سرّاً بيننا، أتعدني بذلك؟

– بالطبع يا مهاجر.

– عندما خرجنا من المعسكر، كان ذلك على أساس أننا نتعرض لغارة جوية معادية، وربما سنشتبك مع الأعداء، وقد كانت الطائرات منخفِضة التحليق، ولكن بعد قليل جاءت الأوامر بأن نلتقط ما سقط من الطائرات، وأفهمونا أنها غنائم رزقنا الله إياها من عدونا، ولكن الحقيقة يا أبا الحوامد كانت واضحة، لقد تأكدت من الشكوك التي كانت تحوم في عقلي، (ارتفعت وتيرة الكلام عند مهاجر وأصبح يتكلم بانفعال): إنها مساعدات يا أبا الحوامد، مساعدات صديقة، هل تصدق؟! رأيت ذلك بأم عيني، لقد دعمونا بالغذاء والسلاح والذخيرة والأموال والمعدات، أشياءٌ لا تخطر لك على بال، صدقني ما نحن إلا بيادق تُحركنا الإدارات العالمية، لتنفيذ مخططات أكبر، ثم يحاولون اقناعنا بأننا أصحاب الرايات السوداء التي تمهد للمهدي، كل هذا مخطط يا أبا الحوامد، نحن خُدعنا من الجميع، إنهم يتاجرون بدمائنا..

– مقاطعاً: على رسلك يا مهاجر، اخفض صوتك كيلا يسمعوك، أخبرني بالله عليك، ما قصة الرايات السوداء، ألسنا أصحابها؟!

– كلا يا أبا الحوامد كلا، الرايات السود التي يضحكون بها علينا تنقسم إلى قسمين: الأولى ظهرت أيام أبي مسلم الخراساني حين مهّد للدولة العباسية، واقرأ التاريخ، فقد روى ابن كثير وابن عساكر: (أن رجلاً سأل أبا مسلم الخراساني وهو يخطب فقال: ما هذا السواد الذي أرى عليك؟ فقال: حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء، وهذه ثياب الهيئة وثياب الدولة، يا غلام اضرب عنقه).

هل سمعت يا أبا الحوامد؟ قال ثياب الدولة، فقد كانوا يسمون الخلافة العباسية بالدولة، وكانت راياتهم وثيابهم سوداء، كما أن بآخر الزمان ستظهر رايات مستقلة ليست تابعة لأحد، ولا صناعة أحد، يسبقها أحداث عظام جسام، أولها نزول الخلافة في بيت المقدس، وليس في مكان آخر، ثانيها انحسار نهر الفرات عن جبل من الذهب، أَلَم تقرأ حديث المصطفى ﷺ حين قال: (**يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ، ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ: فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ**

فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ). رواه ابن ماجة والحاكم.

فالحديث واضح يا أبا الحوامد أنه يتحدث عن أبناء ثلاثة من الخلفاء، ونحن الآن في زمانٍ ليس فيه خلفاء، والخلافة القادمة ستكون في بيت المقدس ويكثر فيها الخلفاء، إلى أن يأتي زمان يختلف فيه ثلاثةٌ من أبناء ثلاثةٍ من الخلفاء، فيقتتلون على ذهب الفرات، ثم تظهر الرايات السوداء القادمة من المشرق، هذا ما لم يحدث حتى الآن.

إذن ليس في زماننا يا أخي، ليس في زماننا، إنهم يستغلون أسماء الأماكن والأحداث ليُلبّسوا علينا حتى نكون حطب حروبهم، أفهمت الحقيقة يا صديقي؟! هل نحن الآن نحمل الرايات السوداء قبل انحسار الفرات عن جبل الذهب؟ لقد فضحهم الحديث..

– (بدهشة وذهول): يبدو أنك صادق يا مهاجر، الواقع يشير إلى أننا بعكس ما يقوله الحديث الشريف، ولكن مسألة أبناء الخلفاء، ألا يعقل أن يكون المقصد أبناء ملوك؟

– كلا يا صديقي، فرق كبير بين الخليفة والملِك، من حيث الإطلاق الوقفي، فالنبي ﷺ أطلق على مرحلتين من مراحل الأمة اسم خلافة، وما بينهما اسم المُلك العاض والمُلك الجبري.

فقد قال ﷺ: **(تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا شَاءَ، ثُمَّ تَكُونُ الْخِلَافَةُ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَتَكُونُ مُلْكًا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَرْفَعُهُ إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ سَكَتَ). رواه البزار والطبراني.**

والمهدي سيكون يا صديقي آخر الخلفاء، لأن بعده سينزل المسيح عيسى ابن مريم ﷺ.

– الحقيقة حُجّتك قوية وأدلّتك واضحة، بدأت أقتنع برأيك، فاعذر جهلي، ألا تذكر حين قلت لك أنني يتيم؟

– (يضحك الاثنان).

– يكمل: صدقني لم نشاهد هنا منذ أن جئنا إلا مخالفات شرعية ينكرها أي عاقل، نحن في قلب الغلو يا مهاجر، وكل ما تعلمناه

منهم باطل، كأنه دينٌ آخر لا يعرف الرحمة، ووالله لقد تورطنا بدماء الأبرياء، فابحث لنا عن الحل الذي ينقذنا مما نحن فيه.

– إن شاء الله سأفعل يا صديقي، نحن ضحايا الكذب والتزوير والتدليس، وسأعمل على خلاصنا بإذن الله تعالى فلا تقلق.

*****

في صباح يومٍ جديد، طُلب من مهاجر وبعض زملائه التوجه إلى إحدى النقاط خارج المعسكر، تحت قيادة أحد أمراء الجماعة، لعمل نقطة تفتيش للمارّين ذهاباً واياباً، بسبب إخبارية جاءت بأن سيارة مفخخة ستقتحم المعسكر وتُفَجَّر فيه.

انطلق مهاجر وبعض رفاقه لعمل هذه النقطة وهم مدججين بالسلاح، وكل ما يلزم لإحباط تلك العملية التي أُخبروا عنها، وكان في التفاصيل أنها سيارة شحن كبيرة من حاملات مواد البناء كالرمل وغيره.

وفي أثناء وقوفهم، لاحظوا جميعهم سيارة شحن قادمة من بعيد، فأصبحوا الآن أمام تحدّ حقيقي، ويجب التصرف

بسرعة لاحتمال المصداقية الإخبارية، ولاحتمالية أن تكون هذه هي سيارة الشحن المفخخة، لتقارب المواصفات بينهما.

استعد الجميع للتعامل مع الموقف بأي شكل كان، قاذف "الآر بي جي" جاهز ومستعد، الرشاشات جاهزة ومستعدة، الجميع على أعلى مستوى الاستعداد.

أخيراً فهم سائق الشاحنة أنهم يشيرون له بالتوقف الفوري، تحت التهديد المباشر بالتصويب الفوري عليه، فخفف سرعته بكل طاقته الممكنة، حتى استطاع التوقف فعلياً قبيل الحاجز ببضعة أمتار، فتسارع إليه بعض المسلحين بحذر شديد، فيما بقي الآخرون في أماكنهم تحّسباً لأي خطر مفاجئ.

نزل السائق من شاحنته، وتمدد على الأرض كما أُشير إليه أن يفعل، تقدم المسلحون، وبحركات سريعة قاموا بالنظر والتفتيش في الشاحنة من الأمام والخلف، ومن فوق ومن تحت، ولم يلاحظوا أي شيء يريبهم، فاقتربوا من السائق وأمروه بالقيام واقفاً، ثم أخذوه حيث يقف أميرهم والآخرون، فقام الأمير باستجوابه عن اسمه وجهة قدومه وجهة توجهه، ثم بدأ التحقيق معه وتوجيه أسئلة مثل: هل لاحظت في الطريق شاحنات واقفة

على جانب الطريق متجهة إلينا؟ ثم أصبح يوجه له أسئلة خاصة به، مثل ما نوع حمولته؟ وإلى أين هو ذاهب بها؟ إلى أن طلب منه الأوراق الثبوتية، وبعد التأكد من كل شيء سأله أين وصل العبور الذي يجب أن يحمله والذي يثبت أنه دفع من خلاله ضريبة المرور لإحدى جهات أو نقاط حدود دولة الخلافة.

– حسناً، والآن أين وصل العبور الذي يثبت دفعك لضريبة المرور؟

– لم أدفعها لأحد، لأنني لم أخرج من حدود الدولة أصلاً، فأنا أتحرك في داخل حدود دولة الخلافة.

– ولكن هذا لا يعفيك من دفع الضريبة، كيف نتأكد أنك صادق وأنك فعلاً لم تأت من الخارج؟

– هذه ليست مشكلتي، بل هي مشكلتكم أنتم، أنا قلت الصحيح وأنتم تدبروا أموركم بعيداً عن طريقي، هيا افسحوا لي الطريق لو سمحتم، يكفي أنكم أرعبتموني..

– (مقاطعاً): وما هذه الجلافة والتكبر في الكلام، تأدب أفضل لك وإلا قتلتك الآن.

– (بعصبية أكثر، ومن غير أن يعي خطورة ما يقول، وكأنه قد ضاق ذَرعاً بهم لكثرة ما رأى منهم): هيا اقتلوني، هل تقتلون مسلماً بلا ذنب، هل هذا يرضي الله تعالى؟

– ممم.. إذاً أنت تدعي بأنك مسلم؟

– نعم أنا مسلم بكل تأكيد ولا أدّعي ذلك باطلاً أو خوفاً.

– حسناً، عدد لي نواقض الإسلام لتثبت أنك مسلمٌ.

– تقصد نواقض الوضوء، أولاً الـ..

– مقاطعاً، بل قلت نواقض الإسلام وليس الوضوء، لا تستهبل علينا، وإلا فأنت غير مسلم.

– كيف يعني نواقض الإسلام؟ ما سمعت عن هذا من قبل!

– ممم الآن أثبتّ أنك كاذب مخادع، هل يوجد مسلم لا يعرف نواقض الإسلام؟ (متوجهاً بحديثه إلى زملائه): هيا خذوه إلى جانب الطريق وشدوا عليه وثاقه، إنه مرتد زنديق ويجب إقامة الحدّ عليه فورا، تقرباً إلى الله تعالى.

– ماذا!؟ هل تتكلم بجدية؟! بل أنا مسلم وأقسم على ذلك..

– (مقاطعاً): اخرس يا زنديق، سترى الآن عقوبة ردتك، وقبل أن نذبحك، سنريك كيف سنحرق شاحنتك هذه، (متوجهاً لزملائه): هيا جهزوا كاميرات التصوير لنصور اعترافه بالردة والزندقة، ولنحرق شاحنته هذه أمام مرأًى من العالَم لكيلا يتهمنا أحد بأننا قتلناه لنسرق شاحنته.

بدأ الجميع يتحرك بسرعة لتنفيذ الأوامر، فهذا يُحضّر كاميرات التصوير، وذاك يُجهّز اللازم لحرق الشاحنة، وثالث يُعِدُّ المكان لذبح السائق، وفي نهاية المطاف أخبروا أميرهم بأنهم جاهزون، كل هذا على مرأى ومسمع مهاجر، وسط ذهوله واستغرابه، فقد كان هذا أكبر مشهد فيه الظلم واضح وضوح الشمس.

وزاد الطين بلة كما يقال، عندما طلب سائق الشاحنة منهم أن يصلي ركعتين لله تعالى قبل قتله، فكان هذا الحوار الغريب، السائق:

– قبل أن تقتلوني هلاّ تركتموني أصلي ركعتين لله تعالى!

– لا، لا يحق لك الصلاة، فأنت مرتد زنديق، كيف ستصلي وأنت مرتد؟

– لو فرضنا أنني مرتد كما تزعمون، أوليس بطلبي للصلاة أكون قد عدتُ عن ردّتي ورجعت مسلماً ككل المسلمين؟! أليس هدفكم أن أعود للإسلام؟ فها أنا عدت للإسلام.

– كلا، وما أدرانا ما الذي بلقبك، وهل شققنا عليه لنعلم ما فيه؟ ثم إن الإسلام ليس بحاجتك.

– إذاً كيف حكمتم بردتي وأنا مازلت أقر بالشهادتين وأصلي وأعتقد ما يعتقد به المسلمون؟! ومن أعطاكم حق التقرير بأن الإسلام بحاجتي أو لا؟!

– هيّا يا رجل اسكت، لقد أكثرت جدالنا، يبدو لنا أنك لحوح تحب الجدال والمِراء والنفاق.

– سبحان الله! ما أسرع وأكثر التّهم الجاهزة لديكم!

تساءل مهاجر في نفسه وهو يراقب ما يجري بصمت، أين الرحمة في قلوب هؤلاء؟ ما هذا الظلم والتجني على عابر

سبيل ليس له في العير ولا في النفير؟ ترى كم حالة مثل هذا المسكين قتلوا ها هنا ظلما وبطشاً؟

صدقت يا رسول الله ﷺ: **(يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان)**. البخاري ومسلم.

وبإشارة من الأمير جيء بسائق الشاحنة أمام الكاميرات، وحاولوا تلقينه ما سيقوله من اعترافات، لكنه رفض، فقرروا أخيراً جعلها على شكل بيان، وبعد البسملة والتكبير:

– تطبيقاً لشرع الله تعالى، نقيم اليوم الحدّ على هذا الزنديق الذي أعلن ردته عن دين الإسلام مفارقاً للجماعة، وبعد محاورته وإمهاله مدة شهر ليراجع نفسه، وبعد إصراره على الردة قررنا إقامة حدّ القتل عليه.

– صوت: تكبير.

– أصوات: الله أكبر.

وبهذا شاهد مهاجر بأم عينيه وسجل جميع ما جرى أمامه، وتأكد أن هؤلاء مجرد لصوص مجرمين قَتَلَة، لا يراعون الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهكذا، وبعد مضي خمسة أشهر على وجود مهاجر في المعسكر، ورأى ما رأى من جرائم لا تمتّ للإسلام من جهة، ولا تمتّ للإنسانية بصلة، قام بمقابلة مراد طالباً منه أن يؤمن له إجازة وخروج من المعسكر للقاء أهله ولو لأسبوع فقط، فقد اشتاق لأهله، ولكي يرجع إلى المعسكر بروح تفاعلية وحماسية أكثر، ولعله يقوم بواجب الدعوة فيستطيع إحضار بعض الشباب الراغب في الانتساب.

لم يخطر ببال مراد أن مهاجر يريد محاولة الهرب، أو أنه اكتشف كذب وإجرام هذه الجماعة، بل هو مسرور منه، لما رأى من حرص مهاجر على أنه يسعى إلى أن يكون أميراً من أمراء الجماعة، فقد عبّر مهاجر عن هذا مراراً ولكنه كان يعلل التأخير قليلاً حتى يكتسب المزيد من الخبرة والتدريب.

وما هي إلا أيامٌ قليلة، حتى حصل مهاجر على الموافقة على الإجازة، مع تقديم النصح له بالحيطة والحذر والتكتم على أسرار المعسكر والجماعة، ولكن مهاجر بعد أن ضمن الموافقة، قرر تأخير السفر إلى عدة أيام قليلة ليشاهد ويسمع المزيد من

الأحداث كونه لن يرجع إلى المعسكر، معللاً ذلك بعدم قدرته على مفارقة أجواء المعسكر والجهاد والرفاق.

وفعلا كان نعم الرأي ما رأى مهاجر، فقد كان بقاؤه سبباً لمشاهدة مشهداً من أغرب ما يمكن مشاهدته في هكذا معسكر، مما لا يخطر على البال ولا على الخاطر.

ففي ليلة من ليالي الصيف الدافئة، والقمر بازغ كأنه يُصوّر ما يجري ليكون على الأحداث من الشاهدين.

وأثناء سمر الجنود في إحدى ساحات المعسكر الخارجية، إذ ببعض الجنود قد ألقوا القبض على أحد الزملاء، ولكن لا يُعلم لماذا، ظن البعض من الجنود ومعهم مهاجر أنه ربما قُبض عليه وهو يشرب سجائر الدخان، أو تراه يستمع إلى الموسيقى، أو نحو ذلك كالعادة.

ولكن بعد قليل جاء بعض من شارك في إلقاء القبض عليه حاملاً معلومات مختلفة تماماً، ومع مرور الوقت سريعاً بدأت بعض التسريبات تنتشر.

ما القصة؟ لقد ألقوا القبض على جاسوس، ثم قيل يبدو أنه ليس عربياً، ثم قيل هو من العدو الصهيوني، هكذا تدرجّت الأخبار، وكثر الحديث واللغط وسط اندهاش جديد من مهاجر وبعض الجند الجدد.

انطلق مهاجر يبحث عن مراد ليستطلع منه الصحيح، إلى أن وجده مشغولاً جداً بهذه القضية إلى درجة الارتباك والحيرة، استغرب مهاجر وقرر مراقبة تصرفات مراد وردود فعله قبل أن يسأله عن شيء.

وكأن مهاجر قد شك بشيء ويريد التأكد منه، فابتعد قليلاً عن مراد وتحركاته، مع الاجتهاد قدر الإمكان في محاولة سماع كل كلمة يقولها مراد أو تُقال له، وكل تصرف وحركة يأتي بها.

وبعد مضي أكثر من ساعة كان مهاجر قد كوّن معلومات عن الحادثة، وعندها اقترب من مراد وكأنه لا يعلم شيئاً ويريد أن يطمئن من مراد، وبعد إلقاء السلام:

– ما الخبر يا أخ مراد؟ يقال بأننا قبضنا على خائن أو جاسوس، ما الأمر؟

– (متردداً): نعم، ممم، نعم جاسوس، إنه جاسوس، لقد أُلقي القبض عليه متلبساً وهو يراسل عدواً غربياً.

– عدواً غربياً!؟ وكيف ألقي القبض عليه وهو يراسلهم، فالمراسلة اليوم أسهل ما يكون عبر "الموبايلات" والرسائل؟!

– نعم.. نعم أقصد أن الجند سمعوه يتحدث بلغة بلده ظاناً أنه ليس بيننا من يعرف لغته، فراقبوه حتى تأكدوا أنه جاسوس، وقد تم زرعه عندنا لينقل المعلومات للعدو عنا وعن تحركاتنا وخططنا.

– الله أكبر، إذاً الأسئلة المطروحة الآن، ومنذ متى وهو بيننا ولا نعلم؟ وهل يا ترى يوجد غيره؟ وهل يوجد لجهات أخرى أيضاً جواسيسهم؟ هل نحن مخترقون إلى هذا الحد ولا نعلم؟

– لا.. لا يا مهاجر، هوّن عليك يا أخي، لن تصل الأمور إلى هذه الدرجة، لا نظن أنه يوجد غيره. (قالها مراد وهو في حالة

تردد وارتباك من غير أن يلاحظ ذلك على نفسه، ولكن مهاجر لاحظ ذلك وتأكد أن مراد يخفي بعض المعلومات ويكذب).

اهتم مهاجر بهذا الموضوع أكثر من أي شيء آخر، وكان حريصاً على أن يعرف كل جديد في القضية، بل وكان يحاول الوصول إلى الجاسوس ليتعرف عليه عن قرب قبل أن يُخفوه أو يُبعدوه عن المعسكر، أو حتى يقتلوه.

وفي الوقت نفسه، أصبح مهاجر يشك في كل الموجودين حوله، واضعاً لنفسه شعاراً جديداً: **(كل فرد ممن حولي هو من الجواسيس، ما لم تثبت براءته عندي)**. وعلى هذا الأساس الجديد بدأ مهاجر يعمل لنفسه، حتى يُكوِّنَ أكبر فكرة صحيحة عن المعسكر وأهله، فجميع تصرفاتهم تشبه تصرفات الخوارج الذين قرأنا عنهم في السيرة والأحاديث، وها هو اليوم يستكشف أن هذا المعسكر ما هو إلا بؤرة جواسيس، ربما كانوا من مختلف البلاد، فقد كان يسمع مثل ذلك من قبل لكنه لم يكن يعير هذا الكلام أي اهتمام، والآن أصبح كلُّ شيء واضحًا أمامه، خاصة وأن العديد من الجند هم من دول مختلفة ويتكلمون لغات مختلفة، وهذا معروف ومشاهد للعيان، فما أدرانا

من وراءهم ومن الذي أرسلهم إلينا؟ لقد ظهروا جميعاً فجأة بعد ظهور المظاهرات في البلاد المختلفة وتصاعد الأحداث الدموية وانتشار الأسلحة والفِرق.

صدقت يا رسول الله صلى الله عليك وسلم: **(يخرجون على حين فرقة من الناس)** رواه البخاري، و**(يخرجون في آخر الزمان عند اختلاف الناس).**

والغريب أن هؤلاء ظهروا فجأة بلا تدرج أو تاريخ قريب معروف بيننا، متى تعرفوا على أنفسهم وتجمعوا من كل تلك المناطق المختلفة؟ كيف استطاعوا جمع هذه المبالغ الكبرى الهائلة، من أين جمعوا كل هذه الأسلحة والمعدات الثقيلة؟ من الذي درّبهم وأعدّ لهم كل هذا الترتيب والتجهز، إنها أمور لا تستطيع الدول العربية إعدادها، بل إن استطاعت لَمَا سُمح لها أن تصل إلى هذا المستوى من التقدم التقني والحصول على هذا السلاح الثقيل!! **(أنا أشك إذاً أنا أفكر)**، هذه القاعدة الثانية التي وضعها مهاجر لنفسه.

في هذه الأثناء فكّر مراد أن يكون مهاجر قد شك في شيء، وأنه يريد الهرب، ومع أن هذا الاحتمال ضعيف، ولكن

من باب الحيطة، خطرت له فكرةَ أن يربط مهاجر بالمعسكر رباطاً لا يستغني مهاجر عنه، فقرر أن يزوجه بإحدى الفتيات اللواتي يعملن معهم في المعسكر في مهام مختلفة، فقرر عرض الفكرة على مهاجر لجس نبضه ومراقبة ردة فعله ثم الحكم بناء على ذلك.

التجارب والحوادث التي مرّ بها مهاجر أعطته مناعة من الوقوع في مطبات جديدة، فقد أصبح شعاره الشك بكل ما حوله.

اجتمع مراد بمهاجر، وبادره بطرح الموضوع بشكل مباشر ومفاجئ ليقرأ ردود فعله:

– سنختار لك عروساً لتصبح شريكة حياتك، من هنا، من فتيات المعسكر، وسيكون مهرها هدية من الأمير، ما رأيك؟

– (طأطأ مهاجر رأسه كي لا تظهر بوادر المفاجأة على وجهه، ثم لاحت له فكرة سريعة، فابتسم ابتسامة تُظهر أنه قد استحيى من الموضوع، ثم رسم على وجهه ابتسامة خجولة هادئة وقال) الحقيقة أنني كنت أفكر في مفاتحتك بهذا الموضوع، ولكني

ارتأيت تأخيره إلى حين عودتي من الإجازة، ثم أختار الفرصة المناسبة التي تكون فيها أقل انشغالاً بهموم الجهاد والدعوة، فأفاتحك بالموضوع، وكذلك حتى أكون قد استأذنت والديّ، وأن ألملم ما أستطيع من مال يعينني على هذا المشروع، ولكن سبحان الله! فلعله قدّر أن تكون المبادرة منك.

ارتاح مراد جداً لجواب مهاجر، وازداد اطمئناناً بولائه للجماعة وللمعسكر، وأنه لا يحمل أي شكوك مريبة، ووافق على ما طرحه مهاجر مرحباً بفكرته بالتريث إلى حين عودته.

ولكن الفكرة فتحت لمهاجر مجالاً جديداً لم يكن قد خطر بباله سابقاً، وهي أن يطّلع على أحوال المسلحين وأزواجهم وأطفالهم، خاصة الذين ينتمون إلى دولاً مختلفة وتزوجوا من هذه المنطقة، فهؤلاء مجرد مجيئهم إلى هنا بداعي الجهاد – المزعوم – قد كُتب عليهم عدم العودة بأنفسهم إلى بلادهم، لأنهم قد أصبحوا في مصافّ المطلوبين أمنياً بتهمة الإرهاب، فكيف لو أرادوا العودة بنسائهم وأولادهم؟

ومن الجانب الآخر، لو قُتلوا أو سُجنوا أو هربوا أو اختفوا، أو تغيرت الأمور كما حدث في أفغانستان وغيرها، فما

هو مصير الزوجات والأولاد؟ هل سيكبر الأولاد على حمل السلاح والتنقل من مكان إلى آخر، فيمتهنونها مهنة يسترزقون منها؟ تُرى هل ستقبلهم الدول لتحتضنهم؟ من سيصرف على تربيتهم وتعليمهم ومستقبلهم؟ هل سيبقون مطاردين من بلد إلى آخر؟

كل هذه الأسئلة وغيرها من التفاصيل الدقيقة والأحكام الشرعية، مَن سيجيب عليها؟ كيف سيعرف هذا أن هذا أخاه أو أباه أو قريبه، في هذه الأجواء من التنقل والمطاردات وعدم التسجيل وحمل الهويات التي تحفظ لكل طفل نسبه وأصله وعائلته؟ يا لها من معضلات كلما ازدادت أعدادهم كلما تفاقمت أكثر وقلّت فرص الحلول لها.

قرر مهاجر القيام بدراسة مبدئية لهذه المسألة، فأصبح يتقرب من بعض المسلحين من الأصول الغربية ممن لهم زوجات وأولاد من أهل المنطقة، ليسجل ملاحظاته، ولكن لم يسعفه الوقت، فقد أخبره مراد بقرب السفر والاستعداد له.

وأخيراً حانت لحظة السفر، حمل مهاجر حقيبته وتوجه إلى الحافلة التي ستقلّه إلى مدينته، ودّع الأصدقاء بمزيد من المشاعر الجياشة والدموع والدعاء بالتوفيق.

ركب مهاجر الحافلة وقبل أن تبدأ السير، لفتت نظره تلك اللوحة الكبيرة: (جاهزون)، حتى سيطر على تفكيره هذا الشعار ونسي أنه في الحافلة في طريق عودته إلى مدينته، فهام حائراً وغطّ في تفكير عميق، يحيطه الغموض، هل نحن فعلاً على أبواب الملحمة؟! بعض الأحداث تشير إلى أننا على أبوابها؟ ولكن الأشخاص والواقع يملي علينا أننا لسنا في ذلك الزمن، بل وكأننا في تمثيلية مصنّعة لما سيكون، وكأننا لسنا في وارد تلك الأحداث.

في كل لحظة تزداد حيرة مهاجر أكثر من اللحظة التي سبقتها، هذا هو الأمر الوحيد الذي لم يستطع مهاجر الجزم والحسم فيه.

بعد ساعات من سير الحافلة، أفاق مهاجر من خياله على صوت مساعد السائق: لقد خرجنا من حدود دولتنا فتجهزوا

لأننا اقتربنا من أول حاجز خطر للعدو، وسنقوم بالالتفاف حوله، فكونوا على أتم الاستعداد لأي مفاجأة.

لم يكترث مهاجر كثيرا لما قاله مساعد السائق، وعاد ليسبح في خياله، تُرى كيف سيقابل أهله؟ ماذا حدث لهم؟ هل بحثوا عنه؟ هل سألهم المحققون عنه؟

وبينما مهاجر يسبح في خياله إذ بأصوات طلقات رصاص تنهمر عليهم، وبدأ مساعد السائق يصيح بهم: لقد كُشِفَ أمرُنا، استعدوا للمعركة.

في هذه الأثناء كانت الحافلة تسير في قمة أحد الجبال، على حافة في طريق خطر، عندما انهمرت عليهم طلقات الرصاص، حاول السائق التحكم بالحافلة، إنه في مأزق كبير، الطريق ضيق ووعر، والرصاص من كل ناحية، وهناك خطر الانزلاق والسقوط من أعلى الجبل إلى أدناه، إنه الهلاك المحتوم، ما العمل؟ ما هو مصير الحافلة؟ لقد أدرك الجميع أنهم هالكون، فبدؤوا بالدعاء.

ولكن شعور غريب تملّك مهاجر، أصابه بالذهول والصمت، لقد أسلم نفسه للقدر وتوكل على الله تعالى.

ووسط هذه الظروف القاسية والمرعبة، انتهى المشهد بسقوط مدوي للحافلة بمن فيها، بعد أن مالت قليلا ثم سقطت ثم بدأت تتدحرج ككرة كبيرة، مع أصوات الارتطام والتكسر، وتطايرت قطع الحافلة، مع سقوط الركاب أيضاً، في كل اتجاه.

شعر مهاجر أنه طار في الهواء، بعد أن سقط من نافذة الحافلة، ولكن مشيئة الله تعالى أسقطته فوق شجرة كبيرة، فأصابه العديد من الكدمات والخدوش، حتى استقر على مدخل مغارة على حافة الجبل، ثم تدحرج إلى وسط المغارة، ثم غطّ في سبات عميق.

*****

الفصل الثالث

(السفر عبر الزمن)

تقدم الحضارة..

أفاق مهاجر وهو يشعر بالتعب والإرهاق، لدرجة أنه غير قادر على الاتيان بأقل حركة، فتح عينيه فإذا بسقف كهف فوقه، سأل نفسه: أين أنا؟ ما الذي جاء بي إلى هنا؟ هل أنا حي أم ميت؟ هل بُعثت للحياة من جديد؟ لقد تذكّرت، آخر مشهد لي قبل هذه النومة حين سقطتُ من الحافلة التي هوت بي وبرفاقي من رأس الجبل إلى أسفل الوادي، ألم أمت وقتها؟ ما الأمر؟

آه.. لا أدري أين أنا، يبدو أنني في كهف أو مغارة في جبل ما، تُرى كم لبثتُ في هذا الكهف؟

تسائل مهاجر هذه الأسئلة في ثانية عيناه، لا تزال تنظران إلى سقف الكهف.

حاول مهاجر رفع رأسه أو قدميه أويديه، يا لها من صعوبة بالغة، وألمٌ شديد: هل أُصبت بشلل بأطرافي؟!

بدأ يتحرك يميناً وشمالاً ببطء شديد، ها هي الأطراف بدأت تتجاوب ببطء، رفع كتفيه واعتدل جالساً ينظر حوله ذاهلاً مُرهقاً:

– أين أنا؟ هل أنا حيٌّ؟ أم أنني في حياة البرزخ؟ ولكن أين الملائكة التي تسأل الميت؟

حاول مهاجر الوقوف مجاهداً نفسه ومقاوماً ألمه، وكأنه نام مئة عام لم يُحرك فيها جسده، وبعد جهد جهيد ومحاولات متكررة، أخيراً انتصر على نفسه ووقف على ساقيه، وتحرك نحو باب الكهف يجرّ قدميه جراً، ويا لَهول ما رأى، إنها دنيا أخرى غير التي عهدها بالأمس:

– يا الله! ما هذه الطائرات الكثيرة التي في الهواء؟! لحظة (يفرك عينيه بيديه) هل هي طائرات حقيقية؟ نعم.. طائرات ولكنها صغيرة، وكأنها طائرات فردية.

وما هذه القصور الفارهة؟ متى بُنيت فملأت الجبال؟ هل هي قصور أم قلاع؟ لم أرَ بحياتي مثلها بهذه الروعة.

وهذه الأشجار الكثيفة أيضاً، وهذه الغابات، متى زُرِع كل هذا؟! سبحان الله! وتلك الطرقات الواسعة الجميلة، متى عُبِّدت؟ أين أنا؟ هل أنا في كوكب اليابان؟ فقد كانوا على وشك هذا التطور التقني.

لا أدري هل أسأل عن المكان الذي أنا فيه؟ أم عن الزمان في أي زمن أنا الآن؟ يا الله! ما هذه الحضارة الجديدة التي أراها؟

إنها لم تكن من قبل، يا إلهي! السيارات أشكالها مختلفة، وحتى أزياء الناس مختلفة عن أزيائنا، حسناً سأحاول الهبوط من الكهف إلى هذه المدينة حتى أستكشف حقيقة الأمر.

نزل مهاجر من كهف الجبل يحاول أن يتغلب على آلامه وأوجاعه، لعله يلتقي بأحد من الناس فيستفسر منه ما الذي حدث في الدنيا.

(صوّب نظره إلى أحد الطرقات التي بدا له فيها أناس يسيرون بشكل منظم): هل هذه جنازة، ولكن النعش يحمله رجال غريبو اللباس، هل هؤلاء رجال أم هي آلة لحمل الأموات؟ يا

إلهي! هل هم من أهل الفضاء؟ وما هؤلاء الصبية الذين يبدو أنهم يمشون وهم وقوف؟ إن أقدامهم لا تتحرك، ومع ذلك هم يتقدمون نحو الأمام، كيف ذلك؟

أسرع مهاجر للّحاق بهم، لعله يظفر بأحد منهم يستطيع شرح ما يحدث، بادر إلى شاب يسير في آخر موكب الجنازة فاستوقفه: لو سمحت..

انتبه ذلك الشاب إلى حال مهاجر، الذي لاح عليه ملامح الإرهاق والسفر، بل إنه يبدو غريباً، وأكثر ما لفت انتباهه، ذلك الشبه الكبير معه في الوجه.

وكذلك انتبه مهاجر إلى هذا الشبه، وكأنه هو أو شقيقه التوأم، فابتسما ورقّ قلب الشاب له، وبسرعة أبدى اهتمامه واستعداده لمساعدته والنظر في حاله:

– تفضل يا أخي، ما الذي حدث لك؟ يبدو لي أنه مصاب بكدمات وجروح، هل أنت غريبٌ عن المنطقة؟

– في الواقع نعم، لا أعلم أين أنا ولا في أي زمن الآن!

– ماذا!؟ لا عليك، يبدو أنك أُصبت إصابة بالغة، تعال معي إلى البيت لأعالج جروحك.

أخرج الشاب قطعة صغيرة من جيبه فضغط على كبسة فيها لها نغمة موسيقية، ثم نظر إلى الأفق:

– هذه سيارتي الذكية جاءت.

التفت مهاجر إلى الجهة التي ينظر إليها الشاب، وإذ بسيارة تأتي من ساحة كانت تقف فيها، والغريب أنها كلما اقتربت أكثر كلما تبين أنه لا سائق فيها، حتى وقفت بقربهم، فقال الشاب وهو يفتح الباب يهمّ بالركوب:

– تفضل يا أخي اركب معي، لنذهب إلى البيت.

– ركب مهاجر والدهشة ترتسم على وجهه: كيف جاءت هذه السيارة من غير سائق؟

– وأين وجه الغرابة يا صديقي؟ هذه السيارة الذكية.

– الذكية؟ ومن أين لها هذا الذكاء؟

– ألم تسمع بالذكاء الاصطناعي! هل يوجد اليوم من لا يملك السيارة الذكية أو حتى يسمع بها؟! هل أنت من زمن آخر؟

– نعم يبدو كذلك، لأنني لم أسمع بها من قبل.

– حسناً لا عليك، ربما تكون قد أصبت بفقدان مؤقت للذاكرة، الآن سنصل إلى البيت فنقوم بعمل التحاليل المناسبة.

– فجأة يخرج صوتٌ من السيارة: لقد وصلنا إلى البيت، الرجاء فتح باب المرآب.

– ذُعر مهاجر من الصوت: أنا أعلم أن السيارة قد تتكلم، ولكن كيف عرفت أننا اقتربنا من البيت؟!

– لا تذعر يا صديقي، ألم أخبرك بأنها ذكية؟

– يا لهذا الذكاء، يبدو أني لم أرَ شيئاً بعد..

– وقفت السيارة أمام المنزل، فتح الشاب الباب بجانبه وأنزل قدمه: تفضل يا أخي لقد وصلنا، هذا منزلي.

يترجل مهاجر من السيارة، ويمشي خلف الشاب فيدخلان المنزل، ينظر مهاجر باستغراب يحدث نفسه: ما أجمل

هذه الحديقة! وما أعجب هذه الأبواب التي تفتح بمجرد اقترابنا منها وتغلق لوحدها من غير أن يلمسها أحد، ما هذا العالم الغريب الذي جئت إليه؟

– يدخل الاثنان إلى غرفة واسعة في البيت، يقف الشاب على الباب ويشير إلى مهاجر: تفضل يا أخي، اجلس هنا ريثما أُحضر لك الروبوت الذكي، ثم يدير ظهره ويمضي.

– يلتفت مهاجر بحركة عفوية سريعة إلى الشاب ويفتح عينيه ويرفع حاجبيه يسأل نفسه باستغراب: كأنه قال الروبوت الذكي؟! ما قصة الذكاء عند هذا الشاب؟ كل شيء عنده ذكي! لن أسأله هذه المرة، لأنه سيقول هذا الذكاء الاصطناعي، حسناً، لابد أن أفهم ما قصة هذا الذكاء المُصَنّع عنده.

يعود الشاب فيدخل الغرفة، ومن خلفه روبوت كأنه رجل صناعي يمشي وراءه، تذكر مهاجر النعش المحمول من غريبي الأزياء، إنهم رجال الفضاء الذين رأى أشباههم في تلك الجنازة:

– بسم الله، ما هذا يا أخي؟ هل هذا من رجال الفضاء؟ إنه يشبه هؤلاء الذين حملوا النعش في الجنازة، ما القصة؟

- يضحك: لا يا أخي، ليسوا من الفضاء، هل تمازحني؟ هذا الروبوت الذكي، وهو متخصص في الأمور الطبية، أما الذين شاهدتهم في الجنازة يحملون النعش، فهم روبوتات متخصصة لحمل الأشياء في الطرق العامة، ما لك وكأنك ترى هذه الأمور لأول مرة؟ فما من بيت إلا وفيه أكثر من روبوت له تخصص ما.

- قلت إن هذا روبوت متخصص في الأمور الطبية؟ لقد قلت في السيارة بأننا سنذهب إلى البيت لعمل التحاليل، فظننتك طبيباً أو ستتصل بطبيب ما، في الحقيقة ما عدت أفهم شيئاً، يبدو لي أنكم في حضارة لم نكن قد وصلنا إليها بعد.

- لم تصلوا إليها؟ من أنتم؟ وأين تعيشون؟ هل يوجد مكان اليوم لا توجد فيه تلك الحضارة؟

- حسناً.. يبدو وكأنني بدأت أفهم شيئاً ما، وسأخبرك به ولكن بعد أن ينتهي هذا الذكي من عمله.

يقوم الشاب بعمل الفحوصات لمهاجر عن طريق الروبوت، وسط استغراب مهاجر من الموقف برمته، وبعد أن انتهى من علاجه، بادر مهاجر بسؤاله:

– والآن أخبرني أين أنا وفي أي زمن نعيش، فكل ما رأيته خارج بيتك هذا وداخله لم يكن سابقاً، عندما سقطتُ في الكهف، فمتى تمّ بناء كلّ ذلك؟

– لا عليك، اطمئن يا أخي، اليوم هو الثلاثاء، وسأخبرك بكل شيء، يبدو أنك لم تأتِ إلى القدس منذ سنوات طويلة، فهذه الأبنية لها عشرات السنين؟!

– القدس؟ وهل نحن في القدس؟ وعن أي ثلاثاء تتحدث؟ نحن في أي عام؟

– نعم في القدس، ونحن في 20 من ذي الحجة لعام 1483، الموافق لـ 10/ 5 (مايو، أيار) من عام 2061 للميلاد، وهل يوجد أحد لا يعرف عاصمة الخلافة؟ وفي أي عام هو؟ كيف تعيش فيها ولا تعرفها؟ تبدو وكأنك نمت منذ سنوات طويلة ثم

أفقت فوجدت نفسك فيها، أو ربما تكون في فقدان مؤقت للذاكرة!؟

– مندهشاً: عاصمة الخلافة؟! أي خلافة؟ ومتى تحررت فلسطين؟ وأين اليهود؟

– يا إلهي! هل أنت جادّ بسؤالك؟!

– (يهمس باستغراب): يبدو أنني فعلاً قد نمت طويلاً في الكهف ثم أفقت في زمن آخر.

– بدهشة: هل تمزح يا أخي؟! عن أي يهود تتحدث؟ ثم ما قصة الكهف؟ لقد ذكرته مرتين في كلامك؟ هل عاد أصحاب الكهف؟

– لا أظن أن غرابة قصة الكهف، ستكون أكبر حجماً من غرابة ما تتحدث عنه بشأن الخلافة التي ذكرتها في حديثك!

– ممم، يبدو لي أنك قد تعرّضت لصدمة أنستك الكثير من الأحداث، أمرك غريب حقاً، أخبرني ما هي قصتك؟! (يتفرس به وكأنه يُشبه أحداً يعرفه، يتابع): هل تعلم؟! أشعر بأنني أعرفك منذ سنوات، ومع أننا ربما في سنّ متقاربة، إلا أنه يبدو عليك من طريقة كلامك كأن عمرك ستين سنة، لا أدري لماذا.

– يبتسم: لا عليك، سأحكي لك قصتي، ولكن الآن أخبرني عن هذه الخلافة التي ذكرتها في كلامك، متى وكيف أصبحت؟ ومن هو الخليفة؟

– حسناً، فكما ترى أو ربما تكون قد سمعت، أنه قد مضى على وجود الخلافة عشرات السنين، أكثر من خمس وثلاثين سنة تقريباً، منذ أن انتهت الفتن والأحداث التي عاشها آباؤنا وأجدادنا في فترة الثلاثينيات وبداية الأربعينيات من القرن الهجري الحالي منذ عام 1432هـ بداية مما كانوا يسمونه وقتها بثورة تونس، حتى تم فتح الجزيرة العربية ثم بلاد فارس ثم بلاد الشام وفلسطين.

وهكذا نزلت الخلافة الهاشمية في بيت المقدس، بعدما طُرِد الصهاينة، وأسلم عدد من أهل الكتاب[8].

وأظنك تعلم، بأننا بدأنا عهد الرخاء مع كثرة الفتوحات، واستفاضَت الأموال وكثُرَت الغنائم، مما اضطر الروم إلى عقد الهدنة الأولى معنا، واعتبارنا قوة عظمى، وانضمام أكثر البلاد العربية لدار خلافتنا.

---

[8] الأدلة على ما سبق وما سيأتي لمن يرغب بها، موجودة في كتابي (الخلافة المقدسية).

لقد كان زمن الخليفة الأول رحمه الله زمن رخاء وبناء وقوة، وكنا ندعوه برأس الخلفاء، لأنه أول من استفتح الله تعالى به الخلافة، ومن ألقابه أيضاً الفاتح، فهو من فتح الله على يديه البلاد.

ثم مات وجاء بعده الخليفة الجابر الهاشمي رحمه الله، وقد امتلأ عهده بالخير والازدهار، واستكمل مشوار الفتوحات، فجبر الله به كسر الأمة، وأخرجها من زمن الفتن، وخلصّهم من زمن الجبابرة والطواغيت، زمن الجاهلية الثانية.

– نعم إذاً هذه الخلافة التي أخبر عنها النبي ﷺ حين قال: **(يَا ابْنَ حَوَالَةَ إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، فَقَدْ دَنَتْ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَايَا وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ، وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ إِلَى النَّاسِ مِنْ يَدَيَّ هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ)**[9]. وهل كانت هذه الخلافة قرشية هاشمية؟

– نعم كانت هاشمية، ألا تعلم ذلك؟

---

[9] أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم.

– بلى، فهذا مصداق قولهﷺ: **(لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً.. كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ)**[10].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "والله لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لختم الله بنا هذا الأمر كما فتحه، وقال: بنا فتح هذا الأمر وبنا يختم"[11].

وقال أيضاً: "إني لأرجو ألا تذهب الأيام والليالي حتى يبعث الله منا – أهل البيت – غلاماً شاباً حدثاً لم تلبسه الفتن ولم يلبسها، يقيم أمر هذه الأمة، كما فتح الله هذا الأمر بنا فأرجو أن يختمه الله بنا. قال أبو معبد: فقلت لابن عباس: أعجزت عنه شيوخكم [حتى] ترجوه لشبابكم؟ قال: إن الله عز وجل يقول [يفعل] ما يشاء"[12]. وزاد البيهقي والداني: "كما فتح الله هذا الأمر بنا، فأرجو أن يختمه الله بنا".

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال للنبي ﷺ: "أمِنّا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله؟ قال: بل منا، بنا يختم الله كما بنا فتح، وبنا يستنقذون من الشرك، وبنا يؤلف الله

---

[10] رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

[11] رواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن، قال محقق الكتاب "الدكتور رضاء الله بن محمد إدريس الماركفوري": وهو موقوف، ورجال إسناده ثقات، إلا أن شريك بن معبد قال فيه ابن حجر: صدوق يخطئ كثيراً، وتغير حفظه منذ ولي قضاء الكوفة، ولكن له طريق أخرى.. وفيه بعض الزيادات.

[12] قال المحقق: .. والاثر أورده السلمي في عقد الدرر (ص106 رقم 68) من رواية المؤلف، .. وأخرجه البيهقي في البعث (ص212 رقم 133) من طريق آخر عن سفيان عن عمرو بن دينار به نحوه، دون قول أبي معبد، وأورده علي المتقي في كنز العمال (14/ 586) وعزا تخريجه إلى ابن عساكر، وهو موقوف، وفي اسناد المؤلف إبراهيم بن بشار له أوهام، وله طريق آخر وتقدم قبله، وفيه شريك بن عبد الله النخعي يخطئ كثيرا وتغير حفظه، وباجتماع الطريقين يصح الأثر موقوفاً.

بين قلوبهم بعد عداوة بينة، كما بنا ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك. قال علي: أمؤمنون أم كافرون؟ فقال: مفتون وكافر"[13].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: ".. ببني هاشم فتح هذا الأمر، وببني هاشم يختم، فإذا رأيت الهاشمي قد ملك فقد ذهب الزمان"[14].

ولكن أخبرني يا أخي، كيف نجح المسلمون في إعادة الخلافة، لابد أنهم بذلوا الغالي والنفيس، وقدّموا الشهداء واسترخصوا الدماء الزكية، حتى استطاعوا إقامة الخلافة، أليس كذلك؟

– كلا يا أخي ليس كذلك، هم بذلوا الدماء في فتح بيت المقدس واسترداده من اليد الغاصبة الآثمة، ولكن الخلافة قدرٌ من الله تعالى ومحض عطاء وفضل، وهي مكرمة ربانية، وفرصة للناس لكي يهجروا الفساد والظلم والبدع، ويعودوا إلى الله تعالى قبل أن يعمّهم بعذاب من عنده، فيدعونه فلا يستجيب لهم.

---

[13] رواه الطبراني في الأوسط، وقال الهيتمي في المجمع: فيه عمرو بن جابر الحضرمي وهو كذاب. وأخرجه نعيم بن حماد بإسنادين مختلفين، الأول فيه انقطاع بين مكحول وعلي رضي الله عنه، والثاني ضعيف.

[14] رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن كثير في الداية والهاية.

فهناك فرق بين أن يسعى المسلمون لتوحيد الكلمة ورص الصفوف، والسعي لإقامة الإمامة العظمى، وهذا واجب عليهم، يجب السعي إليه، وقد كان بحمد لله وفضله.

وبين الخلافة التي هي قَدَرٌ كتبه الله للأمة بأن تكون بعد مرحلة الجبابرة والطواغيت مرحلة خلافة كما أخبر عنها النبي ﷺ، وهذه ليست بالسعي بل محض منٍّ وتفضّل من الله تعالى، عندما عاد الحكم للأسرة الهاشمية، فلا يحق لغيرهم أن يقيم الخلافة، لأن النبي ﷺ قال: **(الخلافة في قريش)**.

– نعم صدقت، فالحمد لله ها هي قد عادت الخلافة الهاشمية المقدسية، تفضلاً وتكرماً من الله تعالى، والله يمنّ على خلقه بما يشاء وله الفضل العظيم، أكمل يا أخي، وهل نحن الآن في زمن هذا الخليفة الجابر؟

– لا، لقد قام بدوره على أكمل وجه، وعظمت الأمة في زمنه وازدهرت، وانتشر العدل وكثر المال، ثم توفاه الله تعالى فجاء بعده الخليفة الذي يسفح المال ويحثوه حثواً، ولا يعده عدّاً، لذا كان لقبه "السفاح".

– نعم، وهذا مصداق قوله ﷺ: **(يَخْرُجُ عِنْدَ انْقِطَاعٍ مِنْ الزَّمَانِ وَظُهُورٍ مِنْ الْفِتَنِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ السَّفَّاحُ فَيَكُونُ إِعْطَاؤُهُ الْمَالَ حَثْيًا)**[15]، أخبرني بالله عليك، كيف كان عهده؟

– كان عهد رخاءٍ وترفٍ، فلا تجد في البلاد فقيراً ولا محتاجاً، لقد وصلنا في زمنه إلى كل ما ترى من قصور ومطارات خاصة وازدهار بنياني، وتقدم علمي، وما من رجل إلا وامتلك طائرة خاصة، يتنقل بها حيث يشاء بين أقطار الأرض، لا يحتاج موافقة أحد.

– خطر ببالي سؤال هنا، وقد يبدو لك طريفاً، كم بلغت سرعة الانترنت في زمنكم وأحجام ذاكرات أجهزة اللابتوب؟ وكذلك حدثني عن أجهزة الموبايلات وقنوات اليوتيوب، وطرق الدفع في الأسواق والمولات التجارية.. والتطور التكنولوجي عموماً.

– نعم.. كل هذا أصبح عبارة عن شعاع ليزري يعمل على الطاقة الشمسية، وهو متوفر للجميع مجاناً، تستطيع أن تشاهد ما تشاء على الهواء، عن طريق ليزر في خاتمك الذي بإصبعك،

---

[15] رواه الإمام احمد وغيره.

وكذلك تستطيع محادثة من تريد عبر الصورة والصوت بنفس الطريقة.

– وماذا عن آخر تطورات الأسلحة؟ والطائرات والصواريخ؟

– بعد تدمير العديد من مدن العالم بالحرب الإقليمية منذ أكثر من ثلاثين سنة، تم الاتفاق على تحريم جميع الأسلحة النووية والبيولوجية، فقد أصبح بالإمكان أن تمتلكها حتى الشركات الخاصة، فضلاً عن أصغر الدول، لذا تم الاتفاق عالمياً على تحريمها ومعاقبة من يمتلكها[16].

– ما شاء الله، طيب أيضاً خطر ببالي سؤالٌ بعيدٌ بعض الشيء عن الموضوع، هل أقيمت دورة كأس العالم لعام 2022 كما كان مقرراً لها في إحدى الدول العربية؟

– يضحك باستغراب: وما أهمية هذا الآن؟ نحن نتحدث عن أمور كبيرة وأنت تسأل عن الرياضة!

– أخبرني لو سمحت، هل أقيمت؟

– لا لن أخبرك، هذا من المحظور عليك معرفته.

---

[16] هذا من خيال وتوقع المؤلف، والله أعلم.

– محظور؟ مِن مَن؟ ولماذا؟

– ستعرف ذلك في وقته.

– حسناً، إذاً ثم من جاء بعد السفاح؟

– بعد وفاة الخليفة السفاح، اختلف الناس على مبايعة خليفتين: أحدهما في دمشق، والثاني في بيت المقدس، وقد كانا صغيرين في السنّ، وذلك لأن ابن الجابر كان في دمشق وقد قارب البلوغ، وابن السفاح في القدس، ولكنه كان صغيراً، فاختلف الناس على أحقية البيعة لمن منهما، واستغل ذلك بعض ضعاف النفوس، حتى اصطلح الناس على الخليفة الرابع، الذي كنا ندعوه "السيف والسلام"، ولكنهم قتلوه بعد أشهر قليلة.

ثم جاء بعده الخليفة الخامس وهو "المفرج"، وكان ضعيفاً طيباً لا يحب القتل، وحاول توحيد كلمة الأمة، وجمع شملها ورصّ صفوفها، ولكن دمشق لم تخضع له، فظهر الأصهب فيها ودعا بالخلافة لنفسه، ومات المفرج مريضاً طريح فراشه، ولم يكمل أشهراً معدودة في الخلافة، وغاب الحكم عن القدس.

– بالمناسبة، هل كان الخلفاء دكتاتوريين يفرضون آراءهم كما كان الحكام قبل زمن الخلافة؟

– لا، إنه نظام مختلف تماماً، لقد كانوا يحثون الناس على حرية إبداء الرأي، وعلى العمل والإنجاز، ويوفرون لكل شاب كل ما يلزمه ليبدع في مجاله، كذلك للفرد حرية دراسة ما يريد، كما أن حرية الاعتقاد مكفولة للجميع، أما سياسياً فقد ملّ الناس سلوك الأحزاب السياسية من قبل، فهي إما متاجرة بالشعارات، أو تجارة بالدين، أو ولاءات مختلفة وشركاء متشاكسون، ولما كنا في حرية لا تتصور حجمها، لم يعد أصلاً للأحزاب أي دور، فاعتزل أكثر الناس العمل السياسي وأوكلوها لدار الخلافة وأهل الحكم[17].

– ولكن إطلاق الحريات هكذا قد يقود إلى فساد المجتمع، فالحرية قد لا تناسب بعض الناس ممن لا يتقيدون بقيود الحرية، أليس كذلك؟!

– بلى، هذا صحيح، فبعد موت المفرج خلا كرسي الخلافة في بيت المقدس، عندها ظهر أفسد رجل عرفته دار الخلافة، إنه

---

[17] وهذا من توقعات المؤلف.

شرّ مَن مَلَكَ، ذلك هو "المخزومي"، لم نعرف مجرماً فاسداً مثله، لا يتقِّ الله تعالى، قتل العلماء حتى لم يعد يجرؤ عالِمٌ أن يُنكر منكراً.

وفي زمن هذا المخزومي الفاسد ظهرت الفتن الكبرى، وانتشر الفساد الذي لم يكن حتى في الجاهلية الثانية زمن الجبابرة والطواغيت..

– ضاحكاً: هل تسمون زمن الجبابرة والطواغيت الذي قبل الخلافة بالجاهلية الثانية؟

– نعم هذا صحيح، ألا تعرف هذه المعلومة أيضاً؟!

– في الحقيقة لا، لا أعرفها، اشرحها لي، لماذا تسموها الجاهلية الثانية؟

– حسناً، أعتقد أنك تعلم أن الجاهلية الأولى هي تلك التي كانت قبل الإسلام، أليس كذلك؟

– بلى هذا صحيح.

– ثم جاء الإسلام وتمم مكارم الأخلاق، ثم ما زالت في نقصان حتى زمن الجبابرة قبل نزول الخلافة، وانتشرت الفوضى تدريجيا، ورُفع الحياء وانتشر الفساد بأشكاله، وعمّ التناكر بين الناس حتى لم يعد أحد يعرف أحداً، وفشا الظلم والبغي والقتل، ولم يعد أحد يبالي إن أكل وأطعم أهله من حرام، ومنع الناس زكاة أموالهم وأصبح الحج للرياء والسمعة، ألم يحدث كل ذلك؟

– بلى والله، بل وأكثر من ذلك.

– أليس هذا من الجاهلية، مع أن في الجاهلية الأولى كان فيها مروءة وكرم وشهامة، وكان في أخلاقهم ما لم يعد موجوداً في الجاهلية الثانية.

– بلى، وهذا صحيح أيضاً.

– المهم، لما أذن الله للخلافة أن تعود، ويعود معها النظام والحكم الهاشمي، الذي حارب الفساد وقضى على الفوضى والتسيب، وعالج المشاكل الاجتماعية، وأنهى القتل والسلب، وفرض العدل والنظام على الجميع، عادت للناس ألفتهم وبزازتهم، وعاد قاصيهم ودانيهم من المهجّرين والمستضعفين،

وبدأت رحلة البناء والعدل، وانتهت الفتن والعصابات المسلحة وقطاع الطرق، وقُضيَ على الخوارج والمتشددين.

– حسناً، حدثي عن زمن المخزومي إذاً، كنت تقول إن في زمنه عادت الجاهلية أكثر من ذي قبل.

– نعم صحيح، ففي عهده منع الأرزاق ومنع العطاء اللذَينِ كانا من قبل، وأفقر الناس وسلبهم حقوقهم، ولا تجد أحداً ينكر عليه واستأثر بالأموال لنفسه وأهله والمنافقين من حوله، حتى غدا هو وأصحابه مثل العجاجيل المريبة، وتمشي نساؤهم ببطيطات الذهب، وثياب لا تواريهن، وكذلك لا تجد من ينكر عليه، وقد أسرف في القتل، فأمر بإخراج أهل اليمن قضاعة ومذحج وهمدان وحمير والأزد وغسان، وجميع من يقال له من اليمن، أخرجهم من القدس حتى أنزلهم في بُصرى الشام. وفي خضم هذه الفتن والفوضى بسبب هذا المخزومي.

برز السفياني الأول، الذي كان وزير الحرب زمن الخليفة السفاح، الذي استغل حاجة الناس إليه وإلى جيشه، فاستقل ببعض المدن، بعد أن هاجمنا البربر من جهة المغرب، فالتفّ الناس حوله يطالبونه بمقاتلتهم، وصدّهم عن دار الخلافة.

فلبىّ النداء فعلاً، وكان خير جيش وقتها، فقاتل البربر وأجلاهم عن دار الخلافة وعن دمشق، وكثير من المدن، حتى هرب ثلثهم إلى حمص، وثلث إلى الحرمين ينتظرون ظهور المهدي، واستسلم الثلث الأخير، وانضم للسفياني، مما جعل جيشه يعظم أكثر.

وكانت معركة قرقيسيا من أشهر معارك السفياني، التي أذاق فيها البربر شر الجزاء، فقتّلهم وحرّقهم.

ثم تغيرت أخلاقه وأصابه الكبْر والغرور، فبدأ بقتال دار الخلافة داعياً بها لنفسه، حتى أنه دفع الأموال والرشاوى للناس لكي يبايعوه وينضموا له.

وكان السفياني قد قاتل الروم والعجم، ولاحق الأبقع إلى مصر فقتله، وعاد إلى الكوفة فأقام فيها المجازر، حتى قتله الله تعالى، فأرسل عليه قرحة أصابته في حلقه مات منها، وبعد فترة زمنية بايع الناس ابن اخته وهو السفياني الثاني.

وها نحن اليوم نعاني من تبعات تلك الفتن، صحيح أن الله قد خلّصنا من المخزومي فأماته، بسبب طمعه وجشعه، فقد

مات في أول ظهور فتنة كنز الفرات، وكذلك قد خلّصنا الله تعالى من فتنة السفياني الأول فمات ولكن الفتن عمّت.

- والآن أين نحن على خارطة الفتن، ماذا بعد كل هذه الأحداث؟

- هل سمعت عن عام الجوع؟ الآن نحن في الشهر الثالث من عام الجوع، وهذه الجنازة التي رأيتني فيها، كانت لمجموعة من الناس ماتوا جوعاً، نحن الآن في فتن لم يمرّ على الأمة مثلها..

- نعم سمعت عن عام الجوع، فقد صدّعوا رؤوسنا به في زمن الجبابرة، في كل عودة لشهر رمضان، كان يتسابق بعض الدجاجلة بتخويف الناس منه؟

- هل قلت في زمن الجبابرة؟ أي جبابرة تقصد؟

- لا عليك، لا عليك، سأشرح لك الأمر بعد قليل، أكمل بالله عليك.

- حسناً، الفتن اليوم في كل مكان، ومنذ أن ظهر عمودٌ من النار في رمضان الماضي منذ أكثر من ثلاثة أشهر، وكان في جهة المشرق.

فبعد أن ثار بركانٌ في خراسان، وظهر عمود نار كبير، رآه الكثير من الناس، فعندها علم الناس أنه العلامة التي حُدّثنا عنها أنها سنة الجوع، فتسابق الناس على الأسواق ونهبوها وتقاتلوا فيما بينهم، ولم يستطع رجال الجيش السيطرة على الأوضاع.

– وأنت هل فعلت مثلهم؟ أراك تتحدث وكأنك بمعزل عنهم.

– أنا كنت من القلائل الذين كانوا يعلمون موعده فكنت قد تدبرت جميع احتياطاتي من قبل، وكنت قد حذّرت الناس من مغبة ذلك، ولكن للأسف قلة قليلة فقط ممن استمع إليّ وفعل مثلي.

– قلت إن الفتن في كل مكان، وإن عمود النار الذي هو علامة سنة الجوع قد ظهر؟

– نعم هذا صحيح.

– ولكن هذا يعني أن الفتن التي كنا نقرأ عنها أنها في شوال وذي القعدة وذي الحجة هذا الذي نحن فيه الآن، قد وقعت فعلاً على أرض الجزيرة العربية!

– نعم فعلاً إنها وقعت، ولكن أين كنت تقرأ عنها؟ إلى الآن أنت لم تُعرّفني عن نفسك، أو يبدو أنك كنت قد فقدت الذاكرة، وها هي بدأت تعود إليك، هل تذكرت الآن نحن في أي عام؟

– لا.. لا يا صديقي، ليس الأمر أمر فقدان الذاكرة، صدقني سأخبرك بعد قليل، ولكن الآن أكمل لو سمحت.

– ماذا أُكمل لك؟ لقد بدأ الناس يتداولون أن نهر الفرات قد انحسر في منطقة الجزيرة الشامية، قرب مدينة الرقة، وظهر الذهب فيه، فهاجر أكثر الناس إليه من كل مكان، بسبب "سنة الجوع" التي نمر بها، لدرجة أن بعض الناس بحثوا عن القطط والكلاب ليذبحوها ويأكلوها، ونخشى أن تتصاعد الأمور إلى أكثر من ذلك.

لقد وقع قتال الفتنة، معارك لا حصر لها، الناس يُقتلون بالآلاف، ومن أكبر هذه المعارك، لك أن تتخيل.

لقد وقع اقتتالٌ عظيم بين أبناء العم، تخيّل.. جيوش أبناء ثلاثة من الخلفاء السابقين يقتتلون الآن فيما بينهم، لقد أفنوا

بعضهم بعضاً، لأجل كنز الفرات، إنها مجازر لم يشهدها التاريخ.

هل تتصور، بأنه يموت من كل مئة رجل تسعة وتسعون ولا يبقى إلا واحدٌ فقط؟ أليس ذلك تحقيقاً لما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

يا للحسرة، لقد هلك شباب ورجال هذه الأمة، وكثرت النساء والأرامل واليتامى، حتى أصبح كل رجل قيّماً على خمسين امرأة حوله، من نسائه وعماته وخالاته وأخواته وغيرهن.

لقد ظهرت فتن جديدة لم تكن من قبل، وازداد الفساد وظهرت الأمراض التي لم تكن من قبل، أصبح الناس كالبهائم.

كل هذا يقع، ولا نعلم ماذا سيفعل هذا السفياني الثاني الذي قد ظهر في دمشق، ورحل إلى الكوفة فأقام بها المجازر، يقال بأنه شرّ من خاله، ولا نعلم ماذا سيفعل بالناس.

– نعم صحيح، فبحسب كلامك فإن هذا أوان السفياني الثاني، لابد أنه قامت معارك أهل الشام والعراق..

– قل لي بربك، كيف عرفت ذلك، وكيف تسألني عن مسائل ثم تكمل ما سأقوله لك وكأنك عشت هذه الأحداث من قبل؟ ألم أخبرك بأن الذاكرة قد بدأت تعود إليك؟

– قلت لك ليست مسألة عودة الذاكرة، عموماً أكمل لو سمحت، وماذا أيضاً وقع ويقع الآن من أحداث هذه الفتن؟

– حسناً، في هذه الأثناء أيضاً، ها هي قبائل العرب قد مالت على بعضها بعضا، وجرت الدماء في الجزيرة العربية، وانتُهب الحاج في هذا الشهر من ذي الحجة، وهذا آخر الأخبار التي سمعنا بها إلى اليوم كما أخبرتك، في 20 من ذي الحجة لعام 1483، الموافق لـ 10/ 5 (مايو، أيار) من عام 2061 للميلاد.

– والسفياني الثاني ماذا سمعت من أخباره حديثاً؟

– بعد انتصاره على أهل الكوفة شرع في إقامة المجازر، حتى إنه قام بقتل جميع من وقع في يده من أهل دار الخلافة، وبأنه ينشر بالمناشير كل من يخالفه، ويطبخهم في القدور التي تغلي بهم لأشهر طويلة، وهذا ما لم يقم به أي ظالم من قبل، إنه

يتفنن بالتعذيب والقتل، لقد أكثر من السبي والأسر، وهذا ما لا يجوز شرعاً.

إنه أسوأ من خاله بمئات المرات، لقد عاث في الأرض فساداً وهو الآن يشارك في القتال في فتنة ذهب الفرات، ويكذب على الشباب ويوهمهم بالنصر والأموال ويرسل بهم إلى هناك.

وقد سمعنا بأن ملك اليمن وهو رجلٌ صالحٌ قد خرج بعد أن سمع مجازر السفياني، متجها إلى العراق والشام لإطفاء فتنة هذا المجرم السفاح.

وسمعنا بأن هذا اليماني قحطاني الأصل، وقد جاء من اليمن والتقى بجيشه مع جيوش السفياني في عدة معارك، ولكنه بعد ذلك انشغل بمقاتلة الروم، الذين جاؤوا ليزيدوا علينا الطين بلة، مستغلين أحوال الأمة والاقتتال فيما بينهم، ولعلهم يطمعون في أن يستولوا على ذهب الفرات.

ولايزال هذا الصراع قائمًا هناك إلى هذه اللحظة، والسفياني يعيث فساداً الآن بين الكوفة والحجاز، يُقتّل الناس ولا يرعى إلاً ولا ذمة في أحد.

– إذاً أبشر يا أخي، هذا أوان أن يرسل الله من يضرب خياشيم هذه الفتن، سيظهر في المرحلة المقبلة رجال صالحون.

– في الحقيقة نعم، وقد أظهر الله تعالى شاباً جاء من جهة خراسان يرفع الرايات السوداء ويلبس زياً أبيضَ جميلاً، فقاتل السفيانيَّ في بعض المعارك ثم جاء إلى القدس لمعاقبة المخزومي الفاسد، وسمعنا أن له قائداً صالحاً هو من أمره واسمه محمد الهاشمي.

والآن ونحن في خضم هذه الفوضى، لخصت لك الأحداث السابقة لكي تعرف كيف وصل بنا الحال إلى هذه اللحظة.

– ولكنك لم تذكر المهدي، لقد ذكرت خمسة خلفاء وبعض الملوك ولم تذكر المهدي، أين هو من كل هذا؟!

– المهدي!؟ لقد استيأس الناس من ظهوره، فكلما ظننا بأحد القادة خيراً وبأنه هو المهدي، أخذته زينة الدنيا وخضع لزخرفها، وطمع بالمال والمناصب، حتى لم نعد نثق بأحد، بل بعض

الناس أصبح ينكر وجود شخصية المهدي، وكما قلت لك لقد نسي الناس أمره ولا أدري ما الذي ذكّرك به.

– أليس فيكم عالِمٌ يعرف أشراط الساعة وأماراتِ ظهور المهدي؟ ألا تعلمون ما هو الحدث الكبير القادم؟!

– كلا، لقد قتل المخزومي أكثر العلماء، ومن بقي منهم لا يتجرأ أن يُحدث الناس بالدين، حتى انتشر الجهل، ودخل البعض في الإلحاد، وأصبح الفقيه يستخفي من الناس، ويُعيّر في قبيلته ويُهان، وأصبح رؤساءَ العشائر والمناطق أرذلُهم، ينافقون للمخزومي ولا يعرفون الله، ولولا أنني أتذكر بعض ما كنت أسمعه من والدي قديماً لما عرفت شيئاً مما هو قادم.

– ما الذي أسمعه منك؟! لقد أفرحتني بأشياء، رغم أن بعض الذي قلته محزنٌ جداً، وصدمتني بأشياء وحوادث وفتن وقعت لكم، وسأسألك مرة ثانية لأنك لم تجبني: هل تعلمون ما هو الحدث الكبير القادم ولعله يكون في الشهر القادم مباشرة؟!

– نعم، إن جميع العالم الآن يخشى من ارتطام ذاك النجم ذو الذنب بالأرض، لقد اقترب موعده ولم يبق لذلك سوى أسابيع قليلة.

– إذن أنتم تعلمون ذلك؟ وهل يوجد استعدادات أممية لهذا الموقف؟

– الحقيقة لا، لأن قوى العالم منشغلة بغزوها لبعضها بعضًا، فهناك صراع بيننا وبين الروم من جهة، وصراع بين الروم والامبراطورية الخليط من الترك والعجم من جهة ثانية، وصراع ثالث بيننا وبين هذه الإمبراطورية الخليط ، ولكن أخبرني: كيف علمت بشأن النجم ذو الذنب؟

– النجم ذو الذنب هو مذنب هالي، وهو مُكتشف منذ سنوات عديدة، فمن المعلوم بأنه قد مرّ بقرب كوكب الأرض في 9–2–1986 الموافق 29–5–1406هـ. ومعلوم أن دورته حوالي 75,32 سنة تقريباً، فهو على ذلك يُتوقع أن تكون عودته إلى الأرض في 30– 5 – 2061، الموافق 10–1–1484هـ.

لذا فهذا زمانه وهذا أوانه، ولم يتبق له سوى عدة أسابيع قليلة من الآن، ويجب على البشرية أخذ الحيطة والحذر استعداداً لما سينتج عن ارتطامه بالأرض.

– كلامك صحيح يا أخ مهاجر، فالعلماء في زماننا يؤكدون ما قلته، ولكن للأسف لا يوجد محاولات جدية من العرب أو الروم لتفادي ذلك، الفساد نخر في العالم، ولو كنا في زمن أحد الخلفاء الذين مضوا لربما كان الأمر أفضل والله أعلم.

– مقاطعاً: أي محاولات لتفادي الأمر ستكون محاولات يائسة فاشلة، اسمع يا أخي: مصارع القدر مغلوب.

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن الله قد كتب ذلك في اللوح المحفوظ وأخبر عنه في كتابه الحكيم، وحذّر من عواقبه نبيه صلى الله عليه وسلم، فهو كائن لا محالة، إنه عذاب أليم وبطشة انتقامية.

– الله المستعان، وماذا قال الله تعالى في هذا الشأن؟ وماذا قال رسوله صلى الله عليه وسلم؟

– أغلب الظن والذي هو أقرب للواقع، ويتوافق مع النظر في القرآن والحديث، أن الذي يتحدث عن هذا الحدث هو سورة الدخان، فالدخان هو نتيجة ارتطام ذلك المذنب بالأرض، فقد قال تعالى:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ [10] يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيم 11] رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُون [12] أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِين [13] ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُون [14] إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُون [15] يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُون﴾ [الدخان].

وهذا ما نفهمه مما فسّره ترجمان القرآن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما بأن الدخان هو الكوكب ذو الذنب، فعن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم، فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع "الكوكب ذو الذنب"؛ فخشيت أن يكون "الدخان" قد

طرق، فما نمت حتى أصبحت. رواه: ابن جرير وابن أبي حاتم. قال ابن كثير في تفسيره: إسناده صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما

فها هو حبر الأمة وترجمان القرآن يفسر الدخان بالكوكب ذو الذنب، إذاً فهو العلامة الفارقة بين ما قبلها من الزمان وما بعدها، ولن يكون ما قبلها كما سيكون ما بعدها، إنه العقاب الرباني للبشرية، إنه العذاب الأليم كما قال تعالى، يغشى الناس فيغطي نور الشمس من فوقهم، وكل ذلك نتيجة لما ارتكبوه من معاصٍ بلغت قمم الفساد والإفساد في الأرض، وتكاسل المصلحون عن القيام بواجبهم، ولم يعد من ينكر المنكر ويأمر بالمعروف، حتى استحقوا نتيجة ما كسبت أيديهم، وما كان الله تعالى ليظلم أحداً، وهذا ما ذكرته لي قبل قليل مما فعله المخزومي في الأمة من فساد، فاستحقوا غضب الله تعالى ومقته عليهم، وهذا يذكرني بحديث:

(إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ ذَاتَ يَومٍ في خُطْبَتِهِ: **أَلَا إنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُمْ، ممَّا عَلَّمَنِي يَومِي هذا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وإنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهمْ،**

وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي ما لَمْ أُنْزِلْ به سُلْطَانًا، وإِنَّ اللهَ نَظَرَ إلى أَهْلِ الأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِن أَهْلِ الكِتَابِ..) رواه مسلم.

فبعد أن أطاع الناس الشياطين وأشركوا بربهم، مقتهم الله وأَبغضَهم أشدَّ البغضِ، عرَبَهم وعجَمَهم، إلَّا بَقايا مِن أهلِ الكتابِ ممن لم يَزالوا مُتمسكين بالحقّ ولم يُبدّلوا دينَهم، وكان هذا قبل الإسلام، أما ما ينطبق علينا الآن في زمننا هذا، فهو قوله ﷺ:

(إنها ستكون هجرة بعد هجرة، فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فتلفظهم أرضوهم، <u>تقذرهم نفس الرحمن</u>، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل منهم من تخلف). رواه الإمام أحمد.

وقد ذُكر القذف في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه ﷺ، قال تعالى:

(أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17)) المُلك.

وفي الأحاديث ذُكر القذف في عدة أحاديث منها:

قال ﷺ: **(والذي بعثني بالحقّ لا تَنقَضي هذه الدنيا حتى يَقَعَ بهمُ الخسفُ والمسخُ والقذفُ، قال: ومتى ذاك يا رسولَ الله؟ قال: إذا رأيتمُ النساءَ ركبنَ السُّرُوجَ، وكثُرتِ المعازفُ، وفشتْ شهاداتُ الزُّورِ، وشُربتِ الخمرُ لا يُستَخفى بها، وشَربَ المُصلُّونَ في آنِيةِ أَهْلِ الشِّركِ مِنَ الذَّهبِ والفضَّةِ، واستَغنَى النِّساءُ بالنساءِ، والرّجالُ بالرّجال، فإذا رأيتم ذلك فاسْتَدْفِرُوا وَاسْتَعِدُّوا إِذَا هَوَى القَذْفُ مِنَ السَّمَاءِ)**. وَفِي رِوَايَةِ الْمَالِينِيِّ: **اسْتَنْفِرُوا وَاسْتَعِدُّوا، فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَوَضَعَهَا عَلَى جَبْهَتِهِ يَسْتُرُ وَجْهَهُ)**. رواه البزار والطبراني والحاكم وغيرهم.

وقال ﷺ: **(لا تقوم الساعة حتى يكون في أمتي خسف ومسخ وقذف)**. رواه ابن حبان.

وقال ﷺ: **(إذا صنعت أمتي خمسا فعليهم الدمار: إذا ظهر فيهم التلاعن، وشربوا الخمور، ولبسوا الحرير، واتخذوا القينات، واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء)**. رواه الطبراني. وفي رواية:

(إذا استعملت أمتي خمسا فعليهم الدمار، إذا ظهر فيهم التلاعن، ولبس الحرير، واتخذوا القينات، وشربوا الخمور، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء)، **قال البيهقي: إسناده وإسناد ما قبله غير قوي، غير أنه إذا ضم بعضه إلى بعض أخذ قوة، والله أعلم.**

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: "لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، حتى لا يقول عبد: مه مه، ولتركبن سنن الأمم قبلكم حذو النعل بالنعل، لا تخطئون طريقهم، ولا يخطئكم، حتى لو أنه كان فيمن كان قبلكم من الأمم أمة يأكلون العذرة رطبة أو يابسة لأكلتموها، وستفضلوهم بثلاث خصال لم تكن فيمن كان قبلكم من الأمم: نبش القبور وسمنة النساء، تسمن الجارية حتى تموت شحما وحتى يكتفي الرجال بالرجال دون النساء، والنساء بالنساء دون الرجال، أيم الله إنها لكائنة ولو قد كانت خسف بهم ورجموا كما فعل بقوم لوط، والله ما هو بالرأي ولكنه الحق اليقين". **رواه نعيم في الفتن.**

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: "إنما حق القول على قوم لوط حين استغنى النساء بالنساء، والرجال بالرجال".

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: **(لا بد من خسف ومسخ وقذف. قالوا: يا رسول الله! في هذه الأمة؟ قال: نعم، إذا اتخذوا القيان، واستحلوا الزنى، وأكلوا الربا، واستحلوا الصيد في الحرم، ولبس الحرير، واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء)**. رواه ابن النجار.

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(إذا استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال؛ فبشرهم بريح حمراء، تخرج من قبل المشرق، فيمسخ بعضهم، ويخسف ببعض؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)**. رواه الديلمي.

وعن أشرس بن شيبان الهذلي قال: "قلت لفرقد السبخي: أخبرني يا أبا يعقوب من تلك الغرائب التي قرأت في التوراة، فقال: يا أبا شيبان والله ما أكذب على ربي (مرتين أو ثلاثًا)، لقد قرأت في التوراة: ليكونن مسخ وخسف وقذف في أمة محمد ﷺ في أهل القبلة. قال: قلت: يا أبا يعقوب! ما أعمالهم؟ قال: باتخاذهم القينات، وضربهم بالدفوف، ولباسهم الحرير والذهب، ولئن بقيت حتى ترى أعمالًا ثلاثة؛ فاستيقن واستعد واحذر. قال: قلت: ما هي؟ قال: إذا تكافأ الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ورغبت

العرب في آنية العجم. فعند ذلك قلت له: العرب خاصة؟ قال: لا؛ بل أهل القبلة. ثم قال: والله؛ ليقذفن رجال من السماء بحجارة يشدخون بها في طرقهم وقبائلهم كما فعل بقوم لوط، وليمسخن آخرون قردة وخنازير كما فعل ببني إسرائيل، وليخسفن بقوم كما خسف بقارون. رواه ابن أبي الدنيا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: **لا تقوم الساعة حتى ترضح رؤوس أقوام بكواكب من السماء باستحلالهم عمل قوم لوط.** رواه الديلمي.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه قال: "أنتم أشبه الناس ببني إسرائيل، والله؛ لا تدعون شيئًا عملوه إلا عملتموه، ولا كان فيهم شيء إلا سيكون فيكم مثله. فقال رجل: أيكون فينا مثل قوم لوط؟ فقال: "نعم، ممن أسلم وعرف نسبه". رواه محمد بن نصر المروزي في كتاب "السنة".

وعن حذيفة رضي الله عنه: أنه قال: "لا يكون في بني إسرائيل شيء؛ إلا كان فيكم مثله". فقال رجل: يكون فينا مثل قوم لوط؟ قال: "نعم". رواه ابن أبي شيبة.

فكل هذه الروايات السابقة تشير إلى أن في الأمة قذف من السماء عندما تنتشر فيهم الفواحش.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، نسأل الله العفو والعافية، ولكن أخبرني يا أخي من أنت؟ وكيف عرفت كل ذلك؟

- حسناً سأخبرك، أنا مهاجر، أقصد اسمي مهاجر، لا أدري كيف جئت من زمن إلى زمن، هل هذا ما يُسمى بالسفر عبر الزمن إلى المستقبل، أم أنني في سبات عميق .

يبدو أنني قدمتُ إليكم من زمن الفتن التي تحدثتَ عنها في أول حديثك، لأنني لا أذكر بأنني شهدتُ ما ذكرتَ من فتح جزيرة العرب وفارس، ولا فتح فلسطين، بل وأستغرب من قولك بدخول بعض أهل الكتاب في الإسلام، ولكنني أذكر أنني كنت باحثاً عن الحقيقة، وأذكر أننا كنا في زمنٍ على وشك ملحمة دابق وفتح القسطنطينية، على رغم عدم قناعتي وقتها بأننا كنا في الزمن المناسب، ومع أنك لم تذكرها في سردك عن الأحداث التي مررتم بها في سنواتكم السابقة، فقد كان أغلب الناس يظنون أننا "قاب قوسين أو أدنى" من ظهورها في ذلك الزمن، أو لعله هكذا أوهم بعض القادة أتباعهم وقتها.

– ملحة مرج دابق التي يقاتل المسلمون فيها الروم؟

– نعم هل تعرفها؟

– لقد سمعت بهذا الاسم من جدي من قبل.

– وهل القسطنطينية اليوم بيد المسلمين؟

– لا لقد احتلها الروم من عشرات السنين، وهم على قتال دائم معنا من جهة، وبينهم وبين الإمبراطورية الخليط من الكرد والعجم من جهة، وبيننا نحن وبين هذه الإمبراطورية من جهة أخرى.. إننا نعيش حالات من الفوضى الداخلية والفتن بالإضافة إلى الصراع الخارجي، نحن في زمن الدهيماء بعد أن كنا في زمن السراء، والأصعب والأدهى من كل ذلك هو ما ننتظره من تلك المصيبة القادمة التي ستصيب جميع من على الأرض.

– إن هذه المصيبة لها طريقة واحدة للنجاة منها، كما جاء في الرواية: (**... فادخلوا بيوتكم وأغلقوا أبوابكم، وسدوا كواكم، ودثروا أنفسكم، وسدوا آذانكم، فإذا حسستم بالصيحة فخروا لله سجدا وقولوا: سبحان القدوس سبحان القدوس ربنا القدوس،**

فإن من فعل ذلك نجا، ومن لم يفعل ذلك هلك). رواه نعيم بن حماد بسد ضعيف.

– إن هذا الدعاء يجب أن نعلّمه لجميع الناس، حتى يأخذوا حذرهم، لعل الله ينجينا من تلك البطشة الكبرى.

– نعم، هيا اعمل على ذلك.

– الحقيقة أن قصتك أثارت فضولي جداً، أخبرني: ما قصة الكهف الذي ذكرته مراراً في حديثك؟

*****

مفاجأة التعارف ...

يسترخي مهاجر قليلاً ويُسند ظهره إلى الخلف، ثم يسرد قصته إلى أن يقول:

– .. وعندما وقعت من الحافلة تطايرنا جميعاً من النوافذ كالعصافير، وكان سقوطي على حافّة أحد الكهوف التي في ذلك الجبل الذي كنا على قمّته، وكل ما أذكره أنني سقطت على أعشاب كثيفة على الأرض، فأُغمي عليّ ولم أعد أذكر شيئاً، فربما أكون قد فارقت الحياة في تلك اللحظة.

– كلا يا سيدي، لم تفارق الحياة.

– مندهشاً: يا سيدي؟ هذه أول مرة تخاطبني بها! ثم ما أدراك بأنني لم أفارق الحياة؟

– لأن تتمة القصة عندي.

– باستغراب: أي قصة؟ ما الذي عندك؟

– قصتك يا سيدي، دعني أخبرك كيف، بل دعني أفاجئك وأخبرك من أنا، ولكن أولاً سأسألك سؤالاً: هل أنت من حيّ الورود الذي فيه مسجد الصحابة الكبير؟

– مندهشاً: نعم هذا صحيح، كيف عرفت ذلك؟!

– وهل سُجنت قبل أن ترحل عن ذلك الحي؟

– الله أكبر! (ضاحكاً): نعم صحيح، فهل درستم هذا في كتب التاريخ؟

– وهل كانوا يلقبونك بمهاجر الزمني؟

– بدهشة كبيرة: من أين لك كل هذه المعلومات عني؟! كل ما ذكرته صحيحاً.

– إذاً الآن سأخبرك بالمفاجأة، يا سيدي أنت عندما سقطت من الحافلة لم تفارق الحياة، ولكنك فقدت الوعي فقط، وهو ما يسمى بـ"**الموت الوشيك**"، ثم بعد ذلك وجدك بعض الشباب في كهفٍ بقلب الجبل الذي وقعتم من فوقه بالحافلة، فأخذوك وعالجوك عندهم في مشفى خاصٍ بهم، بعيداً عن المطاردة.

ثم بعد ذلك تحسن وضعك الصحي، وتمت المساعدة لنقلك إلى مسقط رأسك في بيتك، ولكنك لم تعد إلى المعسكر، بل عكفت على الدراسات والبحث العلمي، وأصبحت من المتميزين بل من الروّاد في هذا العلم، يشار إليك فيه بالبَنَان، وقد نفع الله بك خلقاً كثيرًا، ثم تزوجت وأنجبت ولداً، هل تعرف من هو؟

– لا، لا أعرف، وكيف لي أن أعرفه وأنا لم أصل لتلك المرحلة؟!

– يا سيدي أنا ولدك، وأنت لازلت على قيد الحياة إلى الآن وتبلغ الآن من العمر ستين عاماً.

– مندهشاً: ماذا؟! هل أنت جادّ بكلامك؟! كيف أكون في الستين من عمري وفي العشرين في وقت واحد؟

– بل وأكثر من ذلك يا والدي، لقد شعرت أنك والدي، لذا بعد أن تأكدت خاطبتك بـ "يا سيدي"، وسأجمعك مع نفسك بعد قليل لتتحدث مع نفسك، في سابقة لم تحدث من قبل مع أي شخص.

– يا إلهي، أشعر وكأنني في حلم وليس في واقع..

– بل أنت في واقع، وهذا ما يسمى في علم النظريات بنظرية: (الرؤيا النفسية للقاء الذات في المستقبل).

– وما هذه النظرية؟ ومن صاحبها؟

– هذه نظرية فلسفية جدلية تتلخص في إمكانية لقاء الشخص مع ذاته مستقبلاً، وهي نظرية افتراضية بين الخيال والتطبيق.

– وكيف سألتقي مع نفسي وأين ومتى؟ لقد شوّقتني للقاء ذاتي، وأنا ابن ستين عاماً يا.. بالحق يا ولدي، ما اسمك؟ لم تخبرني به بعد؟

– لو جاءك مولود، ماذا كنت ستسميه؟ أريد أن أعرف هل ستطلق عليّ ذات الاسم؟

– ممم، إن لك نظرة حادة، مرعبة كالصقر، يطير من مكان إلى آخر ليتصيد فريسته، أظن أن اسم صقر يناسبك جدا..

– يضحك ضحكة عالية، فيها استغراب ودهشة: سبحان الله، نعم اسمي صقر، أنت سمّيتني صقر، ليصبح "صقر مهاجر".

– ضاحكاً: حقاً! إنه اسم جميل، ولا أدري كيف اخترته لك وقتها، والآن قل لي، كيف سألتقي مع ذاتي؟

– نعم، هيّا بنا يا والدي لكي تلتقي مع والدي، أقصد تلتقي مع نفسك، إنه في بيته الواقع في نفس الحي الذي نعيش فيه، تفضل.

ويمضي الاثنان سوياً إلى لقاء لم يحدث أن حصل من قبل، حقاً إنه لقاء نادر الحدوث، ولعله لن يتكرر مرة ثانية، تُرى ما هو الحوار الذي سيدور بينهما؟ كيف سيتعاملان مع بعضهما؟ أو ربما الأصحّ أن أقول: كيف سيتحدث مع نفسه وذاته؟ إنه شيء لا يمكن توقعه.

وأخيراً يلتقي مهاجر وهو ابن العشرين عاماً، مع ذاته وهو ابن الستين عاماً، في حضور ولده صقر، الذي تجهّز لرصد هذا اللقاء النادر بكل تفاصيله، وتسجيل تلك العواطف التي لا يمكن توقعها لأنها لم تحدث من قبل.

يدخل صقر إلى والده الستيني ليمهّد له بأنه سيلتقي الآن مع ذاته وهو ابن العشرين، ليرجع بذكرياته إلى الوراء أربعين عاماً، تمتلئ بالأحداث الكبيرة والمشاعر المختلفة.

يفكر صقر في داخله: ربما سيكون وقع هذا اللقاء على والدي الستيني أهون منه على والدي العشريني، لأن الرجوع بالذاكرة إلى الماضي أسهل من استشراف المستقبل وتوقع القادم، خاصة على الصعيد الشخصي، وبالتالي فإن نظرية (الرؤيا النفسية للقاء الذات في المستقبل)، تتطلب معرفة شخصية المرء وكيفية ردّ فعله وهو في العمر الأصغر، مع معرفة واستشعار شخصيته وهو في العمر الأكبر يوم اللقاء، وكيفية ردّ فعله، هل ستكون هي ذاتها يوم كان صغيراً، أم أنها ستختلف وتتغير، وإن تغيرت فهل ستكون للأفضل أم للأسوأ؟ أقصد هل ستكون أكثر إيجابية أم ستكون سلبية غير متوقعة؟ كأن تكون رافضة لهذا اللقاء أساساً، بل من حيث فكرته أصلاً، لا يمكن توقع ذلك إلا بعد رصد العديد من التجارب الميدانية، وها نحن اليوم في أول تجربة فريدة من نوعها.

كل هذا دار في خلد صقر بثوانٍ قليلة، حتى التقى بوالده الستيني وبدأ يمهّد له الخبر، بعد أن أجلس والده العشريني في حديقة المنزل ريثما يخبر والده الستيني، وبعد أن ألقى عليه السلام:

– عندي لك مفاجأة غير متوقعة يا والدي، ولا أدري إن كانت ستفرحك أم لا.

– مفاجأة ماذا يا صقر؟ هات ما عندك أخبرني بسرعة، لم نعد نتحمل المفاجآت في هذا الزمن، فكل يوم أسوأ من الذي قبله، ونحن في زمن هَلَكةٍ ودمار مقبل على الأرض.

– إنها بخصوص شخصي وليس في الشأن العام، أقصد أنها تخص شخصك يا أبتِ، ولن أطيل عليك حتى لا أحيّرك، هل تتوقع أن تلتقي مع ذاتك عندما كنت في العشرين من عمرك؟

– ألتقي مع ذاتي؟ كيف وأين؟ بالخيال أم بالمنام؟

– بل بالواقع يا والدي.

– بالواقع؟ ممم أصبحت تخرّف يا ولدي، لقد أثّرَت عليك ظروف الحياة والفتن الواقعة والخوف من المذنب القادم، لذا يجب أن تكون قوي الإيمان يا ولدي صابراً محتسباً..

– مقاطعاً بابتسامة كبيرة: لا، لا يا والدي الحبيب، ليس هذا الذي ذهبت إليه، على هونك يا سيدي لأشرح لك..

– هاتِ اشرح ما لديك..

– لقد عدت.. آآ أقصد لقد جئت.. لا، يعني لقد سافرت من الماضي إلى..

– مقاطعاً: ألم أقل لك إن الخوف من المذنب القادم قد أثّر عليك، لدرجة أنك لم تعد قادراً على الحديث يا ولدي.

– يضحك مسروراً ومرتبكاً في آن واحد: يا سيدي الحبيب، انتظر قليلاً حتى أستطيع أن أستجمع لغتي ومفرداتي، فالأمر جداً نادر الحدوث ويصعب التعبير عنه..

– خذ راحتك يا ولدي لست مستعجلاً..

– أبي، حسناً، سأخبرك بما حدث، هذه أسهل طريقة، لقد التقيت صدفة بشابٍ كان يبدو على جسده ووجهه أثر السقوط من كدمات وجروح، فطلب مني المساعدة، فأشفقت عليه وأخذته إلى البيت وداويت جروحه، ودار بيننا حديثاً غريباً حتى اكتشفت أنه أنت.

– يضحك الوالد ضحكة مفاجأة وبصوت عالٍ: أنا؟! اكتشفت أنه أنا؟! إنه اكتشاف كبير يا ولدي، أهنئك عليه، اكتشفت أن عمري عشرين سنة ومصاباً بجروح ...

ذهول وابتسامة وحيرة أصابت صقر، حتى شعر بأن الأمر يبدو مستحيلاً، صمت قليلاً ثم أخذ يفكر أكثر كيف يتصرف، وقد بدا على وجهه ابتسامة بلهاء، حاجباه مرتفعان كأنهما يريدان الطيران فوق رأسه، أما عضلات وجهه الخاصة بالتبسّم، فقد توقفت عن الحركة على هيئة ثابتة، وعيناه أصبحتا دائرتين كرويتين وكأنهما عينا "مهرّج" في سيرك بهلواني، وكل تفاصيل الحيرة واليأس والبهجة والسرور مرسومة في طريقة توحي بكل تناقضات الأحاسيس والمشاعر.

ثم أخيراً لاحت له فكرة، يبدو أنها مغامرة لابد منها ولا سبيل غيرها:

– حسناً، يبدو بأنني لن أنجح في توصيل ما أريد قوله، والدي: يوجد ضيف يريد مقابلتك، أجلسته في حديقة المنزل وهو بانتظارك.

– يهمّ بالقيام، وبانزعاج خفيف: ولِمَ لم تقل ذلك من قبل؟ كيف تترك ضيفي يجلس وحيداً وتجلس معي لتخرف وتمزح، هل هذا وقته؟ أين الضيف؟ (وهو يمشي باتجاه الحديقة) تعال، تعال معي لنرحب بالضيف هيا..

– يمشي صقر خلف والده: تفضل، تفضل يا والدي..

يصلان إلى الحديقة، يلقي مهاجر "الستيني" عبارات الترحيب قبل أن يصل إلى مهاجر العشريني: أهلاً.. أهلا وسهلاً، على الرحب والسعة..

يقف مهاجر "العشريني" ويلتفت خلفه حيث مصدر الصوت، فيتفاجأ بشكله حين أصبح في الستين من عمره، وكانت

هذه أول ردّة فعل رصدها صقر، الذي كان حريصاً على ألا يُضيّعَ أيَّ انفعال من كليهما.

بينما كانت ردة فعل مهاجر الستيني في البداية أقل بكثير، بل كانت طبيعية جداً، إلى أن اقترب فلاحظ الشبه الكبير بينهما، ثم تذكر هذه الهيئة مع هذا اللباس، فصار يحدّث نفسه: غير معقول! ما هذا، منذ عشرين سنة كنت ألبس هذا اللباس، وكان شعري وطولي وعرضي بهذا الحجم، ثم تذكر كلام ولده قبل قليل، فمع أنه وضع يده في يد العشريني مُصافحاً بطريقة لا شعورية، إلا أنه نظر إلى صقر بدهشة، رافعاً حاجبيه كأنهما يريدان الطيران كما كان حاجبا ولده قبل قليل، كأنه يريد أن يسأله أسئلة كثيرة: من هذا؟ هل هذا ما كنت تحاول أن تشرحه لي؟ ما الأمر؟ يوجد أمر غريب فعلاً..

ولم يكن مهاجر "العشريني" أقل اندهاشاً في هذا الموقف الغريب الفريد، وقف الجميع ينظرون إلى بعضهم بعضًا في لحظات خيّم عليها الصمت والحيرة والذهول، كل واحد ينظر إلى الآخر لا يعرف ما يقول، إلى أن كسر صقر هذا الصمت:

– تفضلوا بالجلوس، والآن يا والدي هل وصلتك الفكرة التي عجزت أن أوصلها لك قبل قليل؟

– ماذا تقصد؟ أي فكرة؟ أنا لم أفهم شيئاً بعد، من هذا الشاب الذي يبدو وكأنه يشبهني جدا في شبابي؟ والله كأنه أنا..

– مقاطعاً بصوت عال: هو كذلك يا أبتِ، قف عند آخر كلمة قلتها أرجوك، كأنه أنت، إنه أنت فعلاً..

– مندهشاً: كيف ذلك، (ثم وجّه حديثه للشاب): من أنت يا ولدي؟ ما قصتك؟

– العشريني مبتسماً: لست أقل منكما حيرة، نعم أنا أنت وأنت أنا، وهذا صقر ولدك وولدي بنفس الوقت..

– باستغراب: ماذا؟! ولدي وولدك بنفس الوقت؟ من أنت؟ أخبرني وإلا طردتكما أنتما الاثنين الآن..

– العشريني: على هونك، لم أكن أعلم بأنني سأصبح عصبياً هكذا عندما أكبر، أنا سأخبرك، ما الأمر.

ثم بدأ العشريني بسرد القصة كيف أنه أفاق فتفاجأ بكل ما يرى إلى أن التقى بصقر، ثم أكمل صقر الحديث فتكلم عن نظرية (الرؤيا النفسية للقاء الذات في المستقبل)، حتى هدأ "الستيني" قليلاً وهو في شدة الحيرة، مستسلماً لما يقوله "العشريني" لما سمع منه من تفاصيل لا يعرفها إلا هو، مع الشبه الشديد في الشكل والصوت وطريقة الكلام، فأيقن الثلاثة بأنهم أمام موقف غريب فريد لم يحدث من قبل، وبناء عليه يجب عليهم الثلاثة أن يتصرفوا وفق هذا الواقع المفروض، متفقين بينهم على عدم إخبار أحد بما حدث، ثم بدؤوا الحديث عن الواقع والمستقبل.

– صقر لوالده العشريني: ماذا تشرب يا والدي؟ هل أُحضر لك كوباً من الشاي؟

– العشريني: لا، شكراً، فأنا لا أشرب الشاي..

– الستيني باندهاش: "يتنحنح" ماذا؟ كيف لا أشرب الشاي؟!

يضحك الجميع، فقد كان أول موقف يناقض فيه مهاجر نفسه.

- العشريني ضاحكاً: بما أنني لا أجلس مع غرباء، بل أجلس مع نفسي ومع ولدي، في الحقيقة لا أقصد أنني لا أشرب الشاي، ولكنني جائع، وأريد طعاماً قبل الشاي، ولا أذكر متى أكلت آخر مرة. (يضحك ضحكة عالية)، ثم يوجه سؤاله للستيني: خطر ببالي الآن سؤالاً عني، عندما كبرت، هل أصبحت عصبياً ضيّق الصدر؟ أم أصبحت أكثر صبراً وهدوءًا؟

- الستيني ضاحكاً: لماذا تسأل، هل تريد أن تطمئن على نفسك؟! ستلاحظ ذلك بنفسك، ولكن تدريجياً، (بجدية واضحة): اسمع، لا تسأل عن الغيب الذي يخصّك أبداً، سواءً في شخصك أو في مستقبلك، وهذا أفضل لك، لو أخبرتك الآن ربما ستحمل همّ ذلك، بينما الظروف والمواقف التي ستؤثر فيك ستعمل على ألا تلاحظ التغيرات النفسية في طبعك، فتتعايش مع كل تغير بقناعة فطرية.

- العشريني: نعم صدقت، ولطالما علمت بأنني أملك حكمة بالغة وحُسن الرد على التساؤلات.

يضحك الجميع، ثم يتساءل العشريني مجدداً:

- على فكرة! هل سيكون حوارنا مع بعضنا هكذا دائماً؟ أقصد هل كل ما ستقوله سأوافقك عليه والعكس كذلك؟

- الستيني مستغرباً من هذه الفكرة الجديدة: ها! معقول؟ لا أظن ذلك، بل سنختلف كثيراً، فأنت الآن لست في النضج الذي بلغته أنا الآن، عموماً سنلاحظ ذلك طالما أننا مع بعضنا، (ثم يضحك): سبحان الله! ما هذه المواقف الغريبة التي لا تخطر على البال؟!

- العشريني: والآن أخبرني يا أنا، هل كنت محقاً عندما كنت شكّاكاً بكل ما يدور في زماننا وبأننا لم نكن وقتها في زمن ملحمة دابق؟

- "الستيني": نعم بلا شك، ألم أكن وقتها أرفع شعار: أنا أشك إذاً أنا أفكر؟ لقد كانت جميع الظروف وقتها لا تشير أبداً إلى أننا في زمن الملاحم الكبرى، كثيرٌ من الأحداث والشخصيات لم تكن قد ظهرت بعد، وكان قد انتشر بين أكثر الناس أننا في زمن الملاحم والمهدي والسفياني، كذلك كان **لمواقع التواصل الاجتماعي** وقتها السبب الأول في انتشار هذه المفاهيم الخاطئة، لقد كان الناس مستعجلين جدا، وكان أغلب الذين يكتبون في هذا

المجال ممن يصوّرون مقاطعهم على اليوتيوب، يدورون حول نفس الفكرة، متخبطين في آرائهم، متعجلين في اسقاطاتهم، لم يكونوا دقيقين في أبحاثهم، إلا ما ندر من الراسخين في البحث والاستقراء.

– لقد أخبرني صقر بالأحداث التي مررتم بها إلى اليوم، ولا أدري كيف سأخبر الناس عندما أعود إلى زمني، فلو أخبرتهم بأني سافرت إلى المستقبل فسيقولون بأنني جُننت، فكيف العمل برأيك؟

– ضاحكاً: هل نسيت بأنني مررت فعلاً بالموقف الذي تسألني عنه؟

– ضاحكاً: نعم، نعم، على فكرة: هل فعلاً كنت قد سافرت للمستقبل وعدت فأخبرت الناس بذلك؟

– لا لم يحدث ذلك سابقاً، وإلا لكان هذا الموقف يتكرر الآن للمرة الثانية، ولكنت علمت بأنني سألتقي بك الآن، ولم يكن لنا مبرر لكي نتفاجأ جميعنا بالموقف، ولكني قصدت أني مررت

بموقف عودتك من الحياة وكأنه قد كُتب لك عمرٌ جديدٌ بعد أن أنقذك مجموعة الشباب الذين وجدوك في الكهف.

لذا فإنك عندما تعود إلى زمنك، لن تتذكر بأنك سافرت والتقيت بنفسك وأنت ستيني، ولكنك ستستفيد من هذه التجربة فائدة فريدة لن يشاركك فيها أحد من أهل زمانك – وهذا ما كنت أشعر به حقاً عندما كنت بعمرك – إنه شعور يناسب رحلتك هذه إلى المستقبل، فهل تعلم عمَّ أتحدث يا "شبابي" ؟

– الحقيقة لا، لم أفهم قصدك.

– حسناً، إنني أتحدث عن اليقين يا مهاجر، اليقين لا غيره، اليقين بما تؤمن به أنه الحق أو الأقرب إلى الحق والصواب والصحة فيما توصلت إليه من نتائج أبحاثك، إنه اليقين الذي أكرمك الله به نتيجة جهدك، فلكل مجتهد نصيب، إنه اليقين الذي يولّد قوة التصميم والإرادة والثبات، لمزيدٍ من البحث العلمي المنهجي، واستكشاف وفهم مزيدٍ من دلائل النبوة المحمدية الخاتمة، التي أخبر عنها وتقع تباعاً في زمنك، لتنشرها بين أهل زمانك فيُنقذ بها الله تعالى من شاء الله له أن ينجو من شرّ

الفتن، ويسقط من أبى وأنكر وكابر جهلاً وغرورا، في نتيجة جهله وكبْره.

– العشريني: نعم صدقت، فهذا أغلى وأهم ما يمكن أن أرجع به إلى زمني وأهله، اليقين والثبات، الذي سيزيدني إصراراً وفهماً لشرح الحقائق لمن أراد الله تعالى بهم الخير والنجاة، وأما من أعرض فهو الخاسر.

– اسمع يا مهاجر، أنت عرفت ما مضى كما أخبرك صقر، والآن سوف تعيش معنا الأحداث التي كنت تعلمها نظرياً من خلال بحثك ودراساتك، ولكن الآن ستعيشها واقعاً، لترجع وقد عايشت ذلك كأنه حلم في المنام، بعد أيام قليلة ستشهد أول وأكبر حدث مهم في تاريخ الأرض المعاصر لهذا القرن، فترقّب وارصد ولاحظ وسجّل، بعد أيام سيبدأ النجم ذو الذنب بالارتطام بالأرض، ونسأل الله السلامة والعافية.

والآن بدأ يشعر مهاجر "العشريني" بالحكمة التي ربما قد تكون من سفره هذا إلى المستقبل، وهي أنه سيعايش ويرصد الأحداث فيرجع ليخبر الناس ببضاعة سخية، يرويها رواية الذي رأى، فليس من رأى كمن سمع.

- العشريني: لكنكم لم تخبروني، هل وقعت حوادث طبيعية وزلازل وبراكين في كل أصقاع الأرض؟ لابد أنه وقعت بلايا كبيرة في العالم أليس كذلك؟

- صقر: نعم صحيح، وقعت حوادث كثيرة، منذ حادثة ظهور عمود النار الذي ظهر من جبال وبركان خراسان في المشرق وإلى الآن، وسأشرحها لك.

- أشعر بأن العالم على وشك التغيير، إن ما أخبرتموني عنه من علامات كونية وخسوفات في الأرض وفساد كبير، كل ذلك منذر لعقاب إلهي كبير.

- نعم هذا صحيح، ونسيت أن أخبرك أنه قد وقع مسخ في الآونة الأخيرة لبعض الناس، كانوا على درجة كبيرة من الفساد، فمسخهم الله قردة وخنازير.

- العياذ بالله، نعوذ بالله من غضبه وسخطه، إذاً أخبرني يا ولدي، ما أهم الأحداث التي وقعت عربياً وعالمياً.

*****

– سأخبرك، فمن بداية هذه السنة، بل والسنة التي قبلها، لاحظنا كثرة الزلازل في العالم، لم تكن زلازلَ بسيطة، بل كانت مدمرة أزالت العديد من القرى والمدن، وأحدثت دمارا وخراباً، وتسببت بنزوح وهجرات متعددة، ومات فيها مئات الألوف من البشر.

وأكثر من ذلك أيضاً، لقد حدثت خسوفات وتصدعات أرضية في مختلف دول العالم، لقد خُسف بقرى ومدن واختفت عن الوجود، بل قد وصل الحال بكثرة الخسوفات أنه أصبح يُخسف بالبيت فيقال خُسف اليوم بمنزل من؟

أما البراكين فقد ثار العديد منها وتسببت في هجرة الناس من أماكن ثورانها إلى الأماكن الأكثر أمنًا، وكان آخر هذه البراكين ذلك البركان الذي ثار شرق الجزيرة العربية في رمضان وكأنه معلناً بداية سنة الجوع.

وكان في رمضان أيضاً أن خُسف بمدينة تُدعى حرستا قرب دمشق.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، كل ما كنا نقرؤه قد حدث، والقادم أعظم وأشدّ خطراً، يجب علينا أن نستعد له بالإيمان والثبات والدعاء، وكذلك بالأخذ بالأسباب، ما رأيك يا صقر؟

– نعم هذا صحيح، ولم يعد لدينا وقت، هل انتبهت إلى الشمس؟ لقد بدأت تأخذ حُمرة لم تك من قبل، فمنذ رمضان الماضي قبل حوالي ثلاثة أشهر حين حدث كسوفان للشمس في شهر واحد، ونحن نشهد ظواهر شمسية غريبة، وأصبحنا نسمع أصواتاً مرعبة تأتي من السماء.

بدأ مهاجر يرصد ويسجّل كل ما يحدث يومياً، من ظواهر طبيعية غريبة، ويساعده صقر في ذلك، ويترقبون ردود فعل الناس ويسجلونها، ومن جانب آخر، فقد بدأ صقر يُحضّر ويستعدّ بما يلزم لتفادي ما هو قادم، آخذين بالأسباب التي قد تساعد على النجاة بقدر الإمكان، مستذكرين رواية:

(...، فادخلوا بيوتكم وأغلقوا أبوابكم، وسدوا كواكم، ودثّروا أنفسكم، وسدوا آذانكم، فإذا حسستم بالصيحة فخروا لله سجدا وقولوا:

سبحان القدوس سبحان القدوس ربنا القدوس، فإن من فعل ذلك نجا، ومن لم يفعل ذلك هلك). رواه نعيم بن حماد بسد ضعيف.

فالأخذ بالحديث الضعيف لأجل الحيطة والحذر خير من إهماله، وهذا ما نصّ عليه علماء الأمة، مع اليقين بأننا نفرّ من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى، ومن غضبه إلى رحمته، ومن سخطه إلى عفوه، نرجو كرمه وفضله ورحمته.

ومع اقتراب الوعد الحق، بدأت تظهر العديد من العلامات الكونية الجديدة، في الجو والبحر والبَر.

فبدا وكأن السماء تنذر بتغير كبير، فمع كل يوم جديد أصبح يُلاحَظ ازدياد الاحمرار في الجو، وبدأ يظهر غبارٌ يصاحبه أتربة في الهواء، وتزداد الهزات الأرضية، وكأن الأرض تزداد ضغطاً، وكثرت حدوث الأعاصير المسببة لهيجان وارتفاع الأمواج العظيمة التي باتت تشكل خطراً على المدن الساحلية، بل والجزر الكبرى كذلك، منذرة إياها بالغرق المؤكد.

*****

ومع اقتراب شهر محرم من العام الجديد 1484هـ، وكان مهاجر "العشريني" قد بدأ برصد ما يجري، فكان مما سجّله[18]:

مع بداية شهر محرم، بدأ الغبار المنتشر في الهواء، يُعطي الجوّ مزيداً من اللون الأصفر المائل إلى الأحمر، ما يجعل الشفق في مغرب الشمس، يميل مع كل مساء إلى السواد، وكأن الشمس تجرّ خلفها ثوباً أسودَ حزيناً، تتبرأ مما يفعله ابن آدم في شتى بقاع الأرض من معاصٍ وذنوب.

وفي جهة الغرب من السماء، بدأت تلوح من بعيد كرة مضيئةٌ، وكأنها تجرّ خلفها ذَيلاً كبيراً كأنه خيط أسود.

بدت هذه الكرة المضيئة وكأنها متجهة نحو الأرض، كان ضوؤها يبدو بالليل كأنه نار ملتهبة، يشاهدها جميع الناس.

وكان بعضهم يستهزئ بالخائفين منها فيقولون إنها مجرد شهب بعيدة، من الطبيعي أن تظهر في السماء، وبأنه لا داعيَ

---

[18] كل ما تم ذكره هو من خيال الكاتب اعتماداً على ما حدث في التاريخ عندما اقترب النجم ذو الذنب وسجل المؤرخون تلك الأحداث.

لوجود الخوف والرعب الذي ينتشر بين الناس، إنما هي عوارض طبيعية.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:9]

ومع مرور الأيام كانت هذه الكرة المضيئة تزداد اقتراباً من الأرض، وكلما ازدادت وضوحاً ازداد الناس رعباً منها.

والغريب أنه كلما ازداد اقترابها كانت تظهر في الهواء رائحة غريبة منتنة، يظن كل واحد أنها تنبعث من جانب بيته، مما زاد أيضاً من خوف الناس.

لقد أصبح شغل الناس الشاغل، الحديث عن هذا الكوكب القادم، واختلف الناس على اسمه، فالبعض يسميه النجم الطارق أو الثاقب، والبعض الآخر يسمونه بمُذنّب هالي، وقيل الكوكب ذو الذّنَب، وهكذا حتى أصبح حديث الساعة، بين مُهوّل من خطره، ومُهوّن من أهميته.

وبدأت تظهر الظواهر الغريبة، ففي السماء بدت الشهب والنجوم البعيدة، وكأنها تتباعد من أمامه، تاركة له الطريق ليواصل عبوره، ومع كل ليلة يبدو وكأن ذيله يزداد طولاً وسواداً

وغموضاً، وكلما اقترب تتساقط منه الاتربة والأوساخ في كل مكان على وجه الأرض.

أما على الأرض، فقد كثر ضجيج الناس في الأسواق، وغلت الأسعار، وانتشرت السرقات، ونهب الجار جاره، وافتقدت بعض السلع الغذائية من المحلات، وهرجت الدهيماء، ومرجت العقول.

ومع كل يوم جديد، كان الناس يشعرون بازدياد الضغط في الجو، وترتفع الأعاصير الترابية والبحرية، وتقذف البراكين حممها إلى الأعلى وكأنها في سباق لمن يُعلّي حممه أكثر.

وبدت الجبال كأنها تتردد تصدعاً وتشققاً، تتهاوى إلى الأرض مشكّلة سيولاً رملية وصخرية لا ماء فيها.

بقيت هذه الأحوال في ازدياد وتصاعد مخيف، أكثر من ثلاثة أشهر، في كل يوم يرتاع الناس أكثر من قبل، يوقنون بهلاك ودمار قادم، حتى أصبح يودع بعضهم بعضًا، وعلت الأصوات في المساجد والبيوت تضرعاً إلى الله تعالى، أن يلطف بهم ويرفع عنهم هذا البلاء الذي لا حول لهم ولا قوة لصده،

وانتشر بين الناس أن الساعة اقتربت، وبأنه عليهم الإكثار من الاستغفار والتوبة والعمل الصالح قبل ألّا ينفع كل ذلك فيُغلق باب القبول.

ومع اقتراب النجم ذو الذّنب من جهة المغرب، بالنسبة لمن يقطن في بلاد العرب من المحيط إلى الخليج، وبدأ يتّضح وكأنه متجهٌ نحو المشرق، ولكن ذيله المليء بالغبار والأوساخ والأتربة، بدأت تتساقط على الناس وتملأ الهواء، وتدخل البيوت والأمتعة، وتساقطت حجارة صغيرة، فلا يشعر البعض من الناس إلا ورأسه يرضح به حجر منها، فيهوي به صريعاً لا يتحرك.

لقد كنا نشعر بأن هذه الحجارة مسوَّمة من عند الله تعالى، مسجلة لا تخطئ صاحبها، مُرسلَة عقوبة وعذاباً، من رب السماء عزّ وجلّ، "ولا يظلم ربك أحداً".

لقد خيّم الظلام الدامس على الأرض، بعد أن غشي الدخان السماء وأصبح حاجزاً بين الشمس والأرض، لا يُرى في السماء إلا ذلك النجم ذو الكرة الملتهبة، والتي بدأت تلتوي في السماء وكأنها حيّة مرعبة، يلتقي رأسها مع ذيلها كأنها تهدد الناس بالتهامهم، في مشهد ملأ القلوب بالرعب، وأسقطت

الحوامل، وبلغت القلوب الحناجر، وأيقن الجميع بأنهم هالكون لا محالة.

بدأت تنتشر الأمراض الغريبة التي لم تكن من قبل، وذلك بسبب الغبار الذي يدخل الأنوف، فلا يشعر المؤمن إلا وكأن زكمة قد ألمّت به، وأما غير المؤمن فكان ينتفخ حتى يخرج الدخان من كل مسمع منه.

أصبحت الدنيا عبارة عن سيف وجوع وموت، لا رابع لها، فهناك قتل ونهب بلا شفقة ولا رحمة، رغم كل ما يجري من حوادث كونية، وهناك مُوتَان عظيم لم يسبق له مثيل منذ فجر التاريخ، وجوع شديد عمّ البشرية لم يُسمع مثله من قبل.

فطوبى لمن كان مع الله من قبل فكان الله معه الآن، وطوبى لمن صبر ولم يجزع، وطوبى لمن ظن بربه ظن الخير، وطوبى لمن علم من الله ما تمرّ به الأرض فألهمه الصبر والدعاء والذّكر، حتى علم متى سينقشع هذا البلاء.

في هذه الأثناء كان مهاجر العشريني والستيني وصقر وأهلهم جميعاً، قد دخلوا بيوتهم، وأحكموا اغلاق أبوابهم، وسدّوا

جميع الفتحات والشبابيك، وتدثروا فيما عندهم من أغطية سميكة، يخرّون لله سُجّداً يلهجون بالدعاء: **سبحان القدوس، سبحان القدوس، ربنا القدوس.**

لقد أصبح طعامهم وغذائهم التسبيح والدعاء، لم يعد أحد يشعر بالوقت، لم يعودوا يعلمون ما اليوم ولا الوقت، هل هم بالليل أم بالنهار؟ يُقدّرون أوقات الصلاة تقديراً، مقبلون على الله تعالى يلهجون بالدعاء.

وفي يوم من هذه الأيام الموحشة المرعبة، سمع الناس جميعاً صوتاً كأعظم صوت سُمع في الدنيا، صاحبه ارتجاج وزلزلة كبيرة في الأرض، شعر بها كل من على الأرض، انقطع الزمان، وتوقفت الحركة تماماً، وكأن الناس في يوم حساب، لم يعد الناس يسمعون إلا أصواتاً مرعبة، فهذا صوت يشير إلى الأعاصير، وذلك صوت لا شك أبداً أنه صوت أبنية أو جبال تهوي هدداً، وأما الذين بقرب البحار والمحيطات فإنهم يسمعون أصوات تلاطم الأمواج العالية، وكلٌ يظن أن جميع تلك الأصوات إنما هي بجانب بيته.

استمرّ هذا الحال قرابة الأربعين يوماً، لا يُعلم ماذا يحدث في الدنيا؟ لا يُعلم كم من مدينة غرقت، أو كم من البشر هلكوا، الجميع موقن أنه لا ناجٍ إلا من نجّاه الله تعالى، إنها بطشة على كل من في الأرض من بشر وحيوان وشجر وحجر.

هذه المرة الأولى التي نستطيع القول فيها أن الحياة توقفت تماماً، حتى يوم سفينة نوح ﷺ لم تشهد الأرض كهذا اليوم، لقد كان الناس بين سيف وجوع وموت، أما الآن فلم يعد سوى الموت والدمار والهلاك، لم يعد سوى الأعاصير والغرق، لم يعد سوى الهدة والواهية والزلزلة.

وكأنه يوم مُصغّر ليوم القيامة، ليس لك من صاحب سوى ما قدّمت من قبل، ألم يقل نبي الله ﷺ:

(بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوْ الدُّخَانَ، أَوْ الدَّجَّالَ، أَوْ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ)؟

فهنيئاً لمن بادر وسارع قبل هذا اليوم. فالمعاجلة خير من المعالجة، ولا مُعاجَلة اليوم، فمُصارع القدر مغلوب.

بعد عدة أشهر بدأ الدخان يخفّ تدريجياً، وبدأ ضوء الشمس يلوح ضعيفاً، لا تكاد تُرى الشمس، وبدأت الأعاصير والزلازل والأصوات المرعبة تزول شيئاً فشيئاً، وبدأت الرائحة المنتنة ترتفع قليلاً ببطء ملحوظ، وبدأت حركة الناس تعود إلى الحياة على خوف وحذر.

كل هذا كان نسبياً عالميا، تختلف درجاته من مكان إلى آخر، بحسب سِعَة الانفراج، وحجم ارتفاع البلاء، وزوال الضيق والشدة التي استمرت لأشهر مريرة.

شعر مهاجر ومن معه بما شعر به الناس من حوله، من هذا الهدوء العائد إلى الأرض، وهذا الفَرَج الإلهي الذي أنعم الله تعالى به على الأرض وسكانها.

*****

عودة الحياة إلى الأرض...

استعد مهاجر للخروج من البيت ومعه صقر، لرؤية ما جرى في الدنيا في المدة الماضية، والتي شعروا بأنها شهور طويلة من شدة ما لقوا فيها، منذ أن بدأت الشمس بالاحمرار وظهر الغبار في الهواء، قبيل ظهور الكوكب من بعيد، صغيراً في جهة المغرب.

كان الضياء قد بدأ ينفرج أكثر، والظلام يرتفع آخذاً معه شيئاً من الغبار، خرج مهاجر من باب بيته، فما أن وقع نظره على الدنيا حتى صاح: يا الله! ما هذا؟! ما الذي جرى في الدنيا؟!

شتان بين ما رأى حين خرج من الكهف، من حضارة وازدهار، وبين ما يرى الآن من دمار وخراب.

فلا الجبال كما كانت، ولا البيوت كما عهدها، ولا الأشجار كالغابات منتشرة.

الدمار يملأ كل ما يقع عليه النظر، غابات الشجر أصبحت نسياً منسياً، لقد كانت هناك قرىً أصبح عاليها سافلها، غدت القرى خراباً بعدما كانت عماراً، أين البيوت والأسواق والقصور؟ أين البشر؟ لم تعد الحضارة كما كانت، كل شيء تَدَمَّر بالكامل، أعمدة الكهرباء ومحطات الهواتف والتلفزة كلها تحطمت، المركبات الفردية والجماعية ومحطات الوقود وأنابيب الغاز والبترول كلها تكسرت، كان هناك مطاراً مدنياً لم يعد موجوداً، لا هو ولا الطائرات.

لقد أتى النجم المذنب على كل شيء في الدنيا، ولم يترك شيئاً إلا دمره تدميراً.

لقد كانت أعداد البشر تعجّ في الطرقات والأسواق، في المدن والقرى، لم يبق منهم إلا الثلث تقريباً، يا لهول ما حدث، الدنيا لم تعد كما كانت سابقاً، الثلج ينتشر في كل مكان، اللون الأبيض هو سيد الموقف، لا وجود للّون الأخضر، أين الأشجار والأعشاب؟ أين درجات الأخضر التي كانت تحيط بكل شيء؟ هل سيعود اللون الأخضر بعد أن تشرق الشمس كاملة كما كانت؟

وهكذا، رويداً، رويداً، بدأ الناس يخرجون من بيوتهم، ويلتقون مع بعضهم في الطرقات، يتبادلون الأسئلة والاستفسارات، الجميع يملك أسئلة ولا أحد يملك الجواب.

الجميع محتار خائف مرعوب، ماذا بعد؟ ما القادم بعد هذا؟ هل انتهى كل شيء؟ تُرى من بقي من الأمم والشعوب؟ ما الذي بقي من الحضارة، ما النظام العالمي القادم؟ هل عدنا إلى العصر الحجري؟ هل ما زلنا في زمن الخلافة؟ من الذي سيحكمنا الآن؟ هل انتهى زمن الروم؟ هل بقي منهم أحد؟

أما مهاجر وصقر، فبعد انتهاء تلقي صدمة ما حدث، وعودة النفوس إلى استقرارها، والعقول إلى سابقها، وأدركت أن مرحلة النجم المذنب قد انتهت، وأنهم مقبلون على مرحلة جديدة، تختلف كلياً عن سابقتها، فهم يعلمون أن هذا كان سيحدث من قبل أن يقع، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وهكذا مع مرور الوقت وانقشاع الدخان، وعودة الشمس إلى أقرب مرحلة تشبه بها ما قبل الدخان، وبدأ الثلج يذوب ببطء شديد جداً، وبدأت الأرض تبدو من تحته، ثم بعد زمن بدأت الأعشاب تكسو ما ظهر من الأرض، وبدأت الحيوانات تخرج

من مخابئها، فكل محتاج للشمس خرج من مخبئه شوقاً للقياها والتزود منها، من بشر وشجر وحيوان، حتى الفراشات والطيور، بدأت تزين الدنيا حول الناس.

مهاجر: أتعلم يا صقر! تذكرت حديثين لم أفهم معناهما إلا الآن:

أما الأول فقوله ﷺ: **(يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ طَالَ عُمْرُهُ أَوْ قَصُرَ عُمْرُهُ يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِيَ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ، فَيَمْلَؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا، وَتُمْطِرُ السَّمَاءُ مَطَرَهَا وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا، قَالَ: وَتَعِيشُ أُمَّتِي فِي زَمَانِهِ عَيْشًا لَمْ تَعِشْهُ قَبْلَ ذَلِكَ).**

وأما الثاني: فقوله ﷺ: **(يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي عِنْدَ انْقِطَاعٍ مِنْ الزَّمَانِ وَظُهُورٍ مِنْ الْفِتَنِ يَكُونُ عَطَاؤُهُ حَثْيًا).**

الآن يا صقر أدركت معنى الانقطاع من الزمان، والآن عرفت معنى أن تمطر السماء مطرها وتخرج الأرض بركتها، وأن يظهر المهدي، ذلك الرجل الصالح.

بل وأتذكر أيضاً غيرها من الأحاديث، لقد أدركت الآن معنى ذهاب الدنيا، كما في قوله ﷺ: **(لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي)**. ومعنى لو لم يبق من الدهر إلا يوم، في قوله ﷺ: **(لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَؤُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا)**.

سبحان الله! لقد كاد يا صقر ألّا يبق من الدنيا شيءٌ لولا رحمة الله تعالى، وأنه قضى أن يظهر من عترة النبي ﷺ من يُصلح الله على يديه أمر آخر الزمان، كما أصلح الله أمر أول هذه الأمة على يدي نبيه ﷺ، فبهم يصلح أولها وبهم يصلح آخرها.

الآن جاء زمن المهدي، ولابد أن الروم أيضاً سيبدؤون حياة جديدة بعد ما حدث لهم، إنهم أكثر الناس يوم تقوم الساعة، وأسرع الناس إفاقة بعد مصيبة، كما في الأثر، ونحن وهم في كرّ وفرّ ما دام في الدنيا عيش.

*****

الفصل الرابع

(فتح القسطنطينية)

لقد أدرك مهاجر بكلماته السابقة، أنه كلما بقي للبشر وجود على الأرض، كلما بقي الصراع موجوداً بينهم.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾ [البقرة:30]

إذاً هي سنة الله في الخلق، صراع الحق والباطل، ما دام البشر يعيشون عليها، ولا شكّ أنه إن كان للباطل جولة فللحق صولة ودولة، وأن الأرض لله تعالى يورثها لمن يشاء من عباده المصلحين، وأن العاقبة للتقوى وليس للأقوى، فكل قوة زائلة، وتبقى قوة الله تعالى التي لا تزول ولا تضعف.

– صقر: وما القادم الآن يا والدي؟

– مهاجر العشريني ضاحكاً: لقد كدت أن أنسى أني والدك، من شدة الأحداث التي مرت علينا، أكاد أكون الوحيد في العالم الذي عاشها مرتين، أو عشتها بشخصيتين، مرة شاباً ومرة شيخاً كبيراً.

– بل ثلاث مرات يا أبي، وهذا قَدَرك، فستعيشها للمرة الثالثة بعد أن ترجع إلى زمنك ويمر بك الزمان، وتقع كل تلك الأحداث، حتى تصل إلى اليوم.

– يا إلهي! صدقت يا صقر، لم يخطر ببالي أنها ثلاث مرات، ولكن لا بأس فالمرة الثالثة ستكون أسهل بكثير، فكأن ما حدث في المدة السابقة كان تجربة تمهيدية لي (بروفة)، لذا ستكون في المرة القادمة أهون عليّ، وسأكون فيها أكثر يقيناً برحمة الله وفضله، وهذه من فوائد معرفة وفهم أشراط الساعة ومدارستها.

تذكرت، لقد سألتني ما القادم؟ القادم هو ظهور المهدي، وقتاله للسفياني، الذي لابد وأنه يستعد الآن لاستعادة ملكه في الشام والعراق والحجاز، أما هنا في بيت المقدس، فسيأتي شعيب بن صالح بعد أن يخوض عدة معارك مع السفياني، سيقدم إلى هنا لتوطئة الملك للمهدي، الذي لن يأتي إلا بعد البيعة الأولى له في الحجاز، ثم يقع الخسف بجيش السفياني، ثم يأتي ليقاتله هنا في الشام، ثم يأسره ويأتي به إلى بيت المقدس فيقتله على صخرة.

وهكذا، في هذه المرحلة الزمنية، أقبل الناس على شراء الدواب التي كانوا قد أهملوها زمناً طويلاً لعدم احتياجهم لها، فارتفعت أسعار الإبل والخيل والبغال والحمير، فقد عادت هي وسائل المواصلات والترحال والسفر المتاحة بين الناس.

وعاد الناس لتربية المواشي، فأقبلوا على شراء الأغنام والأبقار، وجميع أنواع الطيور التي تُربى في ملحقات البيوت، من دجاج وبطّ وحمام.

كما شهدت هذه المرحلة انتشار صناعة السيوف والخناجر، والرماح والدروع الواقية، فقد عادت هي السلاح المناسب والمتاح للحروب، وللدفاع الشخصي أمام العدو وقطاع الطرق واللصوص. وبدأ التعامل بين الناس بالمبادلة، إلى أن قامت الدول بصك درهم الفضة ودينار الذهب.

– صقر: هل سمعت يا أبي ماذا حدث في بلاد الروم (أوروبا) أثناء مدة النجم المذنّب؟

– لا لم أسمع، ما الذي حدث؟

– لقد أخبرني بعض من جاء من هناك، أن أكثر بلاد الشمال القريبة من القطب الشمالي قد غرقت، وذلك لأن المذنب الذي ارتطم في الشرق، ارتطم رأسه الآخر وهو كتلة الذيل في بلاد الغرب، فأحدث دماراً سريعاً وغرقت المدن والدول ولم يبق مكانها سوى البحار والمحيطات.

– ماذا؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد نزل عليهم عقاب الله فشمل الجميع، ولكنهم سيُبعثون يوم القيامة على حسب نياتهم وسيحاسبون بحسب أعمالهم.

– نعم صدقت يا أبي، والآن لقد ولّوا عليهم رجلاً لا يعصونه أبداً، وهو من نسل هرقل عظيم الروم، وهم يبنون الآن حضارتهم الجديدة على أنقاض الماضي، ويصنعون كل ما يمكّنهم من التصدّر على الأرض من جديد.

– لا عليك يا صقر، دعهم يفعلون ما يشاؤون، ولكل حادثة حديث، وما أخبار السفياني؟ هل سمعت شيئاً جديداً؟

– نعم، الناس يجددون له البيعة ملكاً عليهم كما كان من قبل، وقد اجتمعت حوله بعض القبائل، كما أن أخواله قد بايعوه عليهم

أيضاً، وأهم خبر أنه يتجهز الآن لإرسال جيش إلى الحجاز، فقد سمع أنهم بايعوا رجلاً هاشمياً، فيريد أن يقاتل هذا الرجل ويعاقب أهل الحجاز.

– ماذا؟! أحقاً ما تقول؟ فإن كان ما تقول فإنه المهدي قد ظهر.

– سمعت أنه رفض البيعة في البداية وهرب من الناس من مكة إلى المدينة، فتبعه الناس وأرغموه على بسط يده ليبايعوه وهو كاره لها لا يريدها، هل ستسافر إليه يا أبي لتجاهد معه وتبايعه؟

– الله أكبر إنه المهدي إذاً، هذه الأمارات تدل على أنه هو، وعلى ذلك فإن جيش السفياني هذا سيخسف به الله تعالى، وعندها سيتبين للناس بأنه هو المهدي لا شك، لكني لن أسافر إلى هناك، سأبايعه هنا في بيت المقدس، وسأجاهد معه في الملحمة الكبرى إن شاء الله.

– نعم، ما هي إلا أياماً وسنسمع ما يحدث.

– يجب علينا مبايعته يا صقر، وانظر سبحان الله، ها هي الحجاز تكتسي جميعها باللون الأبيض، فالثلوج لم تذب بعد، وذلك من أثر غياب الشمس وانتشار الثلج في المدة التي كان

فيها المُذَنَّب والدخان قد غطى الشمس بحرارتها وضوئها، الثلوج هناك كثيفة جداً، وبذلك سيتحقق قول المصطفى ﷺ: (بايعوه ولو حبواً على الثلج).

وهكذا، تعود المعارك من جديد، وكأن الناس لم يتعرضوا لعقاب جماعي قريباً، وكأنهم لم يتعرضوا للهلاك، وكأنهم لم يتعرضوا للجوع والخوف، وكأنهم قد تناسوا الاستغفار والدعاء الذي تضرعوا به إلى الله تعالى لينجيهم، لقد نسوا كل ذلك.

لقد ظهر جيل جديد من الخوارج، أولئك الذين يقطعون الطرق وينهبون المسافرين، وقد اتبع بعضهم السفياني، وسيحاربون عترة النبي ﷺ كما حاربوا جده علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وها هو جيش السفياني يسير باتجاه مكة المكرمة لقتال الرجل الذي بايعه الناس هناك، وسوف يُخسف به، ولن يبق إلا المُخبر الذي يعود لسيده ليخبره خبر الخسف.

وسيظهر خليفة المسلمين الرجل الصالح، إنه المهدي بلا شك، ها هي علامة الخسف توشك أن تظهر واضحة للعيان.

– صقر: لقد وقع الخسف يا أبي، جيش السفياني قد خُسف به، لقد تحقق ما أخبرتني به، الله أكبر..

– حقاً يا ولدي! الله أكبر، أخيراً ظهر المهدي، الآن سيقاتل السفياني في تبوك أول أرض الشام، وسينصره الله تعالى عليه، وسيقدم إلى بيت المقدس حتى تتحقق البيعة الثانية له فيها، ويختارها داراً للخلافة، وستكون بعون الله خلافة على منهاج النبوة، وينشر العدل، وسيكرمنا الله بالغيث الذي سيغسل الأرض من آثار النجم المذنب ومن آثار الفساد البشري ثم تُخرج الأرض بركاتها وتعظم الأمة.

ثم بعدها سيتجهز للجهاد ضد الروم والامبراطورية التي تضم العجم والترك، الذين يحتلون بلاد المسلمين، ثم ستقع هدنة بينه وبين الروم، ثم سيغدرون به وتقع الملحمة العظمى، وهذه الملحمة أسأل الله أن يرزقني المشاركة فيها، ثم لا أبالي إن عدت إلى زمني لأخبر الناس بكل هذه التفاصيل.

*****

بـداية ظهور أمر المهدي..

بعث السفياني خيله وجنوده فبلغ عامة الشرق من أرض خراسان وأرض فارس، وعندما سمعوا بذلك ثار أهل المشرق لقتاله، فكان بينهم وقعات في غير موضع، حتى بايعوا رجلاً من بني هاشم، وهو يومئذ في آخر الشرق، فخرج بأهل خراسان، وعلى مقدمته رجل من بني تميم مولى لهم، أصفر قليل اللحية، خرج إليه في خمسة آلاف بعدما بلغه خروجه، فبايعه وصار على مقدمته.

"لو استقبلته الجبال الرواسي لهدها" هكذا هي صفة هذا الشاب، فالتقى هو وخيل السفياني فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، والمعارك كرّ وفرّ، ثم كانت الغَلَبَة للسفياني.

غيّر الهاشمي خطّته، وكان واثقاً بأن الله ناصره، فأرسل شعيب بن صالح سرّاً إلى بيت المقدس ليوطئ له منزله إذا بلغه خروجه إلى الشام.

وكان السفياني قد أرسل أيضاً جيشاً إلى الكوفة ليعركها عرك الأديم، فكتب إليه يأمره بالسير إلى الحجاز فيسير إلى المدينة فيضع السيف في قريش.

فخرج الجيش وقتل منهم أربع مائة رجل، وبقر البطون، وقتل الولدان، وقتل أخوين من قريش رجل وأخته يقال لهما محمد وفاطمة وصلبهما على باب المسجد بالمدينة.

خرج الهاشمي ومعه بعض أهله من المدينة إلى مكة بعدما سمع بجيش السفياني، فبعث السفياني في طلبهما، واستباح المدينة وقتل النفس الزكية.

وكان في مِنى ملحمة عظيمة، وكثر فيها القتلى، وسُفكت الدماء حتى سالت على عقبة الجمرة.

وعندما وصل الهاشمي بمن معه إلى مكة، أرسل إليهم صاحب مكة أن: ما جاء بكم؟ أعندنا تظنون أن تجدوا الفرج؟ فراجعه رجل من بني هاشم، فأغلظ عليه، فغضب صاحب مكة وأمر به فقُتل.

فلما كان من الغد، جاءه رجل منهم قد اشتمل بثوبه على سيفه فقال: من حملك على قتل صاحبنا؟

فقال: أغضبني.

فقال: اشهدوا يا معشر المسلمين إنه إنما قتله لأنه أغضبه. فاخترط سيفه فضربه به ثم انحازوا نحو الطائف، فقال أهل مكة: والله لئن تركنا هؤلاء حتى يبلغ خبرهم الخليفة ليهلكنا.

فساروا إليهم فناشدهم الهاشميون: الله الله في دمائنا ودمائكم، قد علمتم أنه قتل صاحبنا ظلماً.

فلم يرجعوا عنهم حتى قاتلوهم فهزموهم واستولوا على مكة، وبلغ صاحب المدينة أمرهم فقالوا: والله لئن تركناهم لنلقين من الخليفة بلاء، فبعث إليهم صاحب المدينة جيشاً فهزموهم.

ولما سمع السفياني بكل ذلك، قطع إليهم جيشاً فلما أتوا البيداء قبل مكة، ونزلوها في ليلة مقمرة، أقبل راعٍ ينظر إليهم ويعجب ويقول: يا ويح أهل مكة ما أصابهم.

وانصرف إلى غنمه ثم رجع فلم يرَ أحداً، فإذا هم قد خُسف بهم فقال: سبحان الله! ارتحلوا في ساعة واحدة؟

فلما اقترب من منزلهم، وجد قطيفة قد خُسف ببعضها وبعضها على ظهر الأرض فعالجها محاولاً إخراجها، فلم يطيقها، فعرف أنه قد خُسف بهم.

فانطلق إلى صاحب مكة العائذ بها يبشره عند العشاء، فقال صاحب مكة (الهاشمي): الحمد لله هذه العلامة التي كنتم تخبرون، فيسيرون إلى الشام.

(ثم نادى بأعلى صوته يقول):

أذكركم الله أيها الناس ومقامكم بين يدي ربكم، فقد اتخذ الحجة وبعث الأنبياء وأنزل الكتاب وأمركم أن لا تشركوا به شيئاً، وأن تحافظوا على طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وأن تحيوا ما أحيا القرآن، وتميتوا ما أمات، وتكونوا أعوانا على الهدى، ووزراء على التقوى، فإن الدنيا قد دنا فناؤها وزوالها وأذنت بالوداع، فإني أدعوكم إلى الله وإلى رسوله ﷺ، والعمل بكتابه، وإماتة الباطل وإحياء سنته.

ثم ظهر المهدي في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، عدة أهل بدر، على غير ميعاد، قُزَعًا كقزع[19] الخريف رهبان بالليل أسد بالنهار، ففتح الله للمهدي أرض الحجاز، واستخرج من كان في السجن من بني هاشم، ثم أتاه عصائِب العراق، وأبدال الشام، ونجباء مصر، فبايعوه بين الركن والمقام.

خرج المهدي من مكة إلى بيت المقدس والشام بعدما بويع له، في ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً عدة أهل بدر، فيهم الأبدال، فلما بلغ الخبر السفياني، قال له أهل الشام: لقد خرج المهدي فبايعه، وادخل في طاعته وإلا قتلناك.

فقال السفياني: لعمرو الله لقد جعل الله في هذا الرجل عبرة، بعثتُ إليه ما بعثت فساخوا في الأرض، إن هذا لعبرة وبصيرة.

فأرسل إليه السفياني بالطاعة، ثم خرج حتى يلقى "كلباً" وهم أخواله، فقاموا يعايرونه بما صنع، وقالوا: كساك الله قميصاً فخلعته؟

فقال: ما أصنع؟ لقد أسلمني الناس، فما ترون؟ أستقيله البيعة؟

[19] القزع قطع السحاب المتفرقة وإنما خص الخريف لأنه أول الشتاء والسحاب يكون فيه متفرقا غير متراكم ولا مطيق. النهاية ابن الاثير.

فقالوا: نعم، وإنا معك.

فأرسل إليه يقول له: أقلني.

فأقبل المهدي من مكة والسفياني من الكوفة نحو الشام كأنهما فرسا رهان، فسبقه السفياني فقطع بعثاً آخر من الشام إلى المهدي، فالتقوا مع المهدي بأرض الحجاز فبايعوه بيعة الهدى وأقبلوا معه حتى انتهوا إلى حد الشام الذي بين الشام والحجاز، فأقام بها.

ثم خرج رجل من كلب يقال له كنانة، يعينه كوكب في رهط من قومه، حتى أتوا السفياني معاتبين فقالوا: بايعناك ونصرناك حتى إذا ملكت بايعت عدونا؟! لتخرجن فلنقاتلن.

فقال: فيمن أخرج؟

فقالوا: لا تبقى عامرية أمها أكبر منك إلا لحقتك ولا يتخلف عنك ذات خف ولا ظلف.

فسار وسارت معه عامر بأسرها حتى نزلوا بيسان، فوجّه إليهم المهدي راية من مائة رجل فنزلوا على "**فاثور إبراهيم**".

صفّت "كلب" خيلها وإبلها وغنمها، فلما تشامت الخيلان ولّت "كلب" أدبارها، وأُخذ السفياني فذُبح على الصفا المعترضة على وجه الأرض عند الكنيسة التي في بطن الوادي على طرف درج "طور زيتا"، القنطرة التي على يمين الوادي على الصفا المعترضة على وجه الأرض عليها، يُذبح كما تُذبح الشاة، فالخائب من خاب يوم "كلب".

والآن وقد استتب الأمر للمهدي، وقد تمت البيعة الثانية له في بيت المقدس، وأصبح خليفة المسلمين.

كانت أول أعماله بإعادة تنظيف وتنظيم البيت الداخلي، ومحاسبة الفاسدين وتولية الصالحين، والعدل بين الناس، كما وبدأ بإعادة صفّ الجيوش للجهاد، لمحاربة المحتلين لبعض البلاد العربية.

حيث كانت بعض بلاد المسلمين ترزح تحت احتلال الروم، والبعض الآخر تحت احتلال دولة خليط الترك والعجم، ممن لهم صفات خاصة يُعرفون بها، منها أنهم صغار الأعين حمر الوجوه، ذلف الأنوف، وجوههم كأنها المجانّ المطرقة، ويلبسون الشعر ويمشون في الشعر.

وكان هؤلاء يحتلون العراق، وجزء من الجزيرة الشامية، وبعض الجزيرة العربية، ومناطق الأناضول، بالإضافة إلى دولتهم الممتدة بين خوز وكرمان ومرو، حتى حدود البحر الأسود.

وكانوا على قتال دائم مع العرب تارة، ومع الروم تارة، فيغزون هؤلاء وهؤلاء، ويقتلون من الفريقين.

*****

أعمال المهدي بعد توليه الخلافة..

كان أول لواء أرسله المهدي للجهاد، هو ذلك الذي أرسله لقتال تلك الدولة الخليط من العرق التركي والعجم، والتي تحتل أجزاء من بلاد المسلمين.

وفي هذه الأثناء كان جيش الروم ينخر بلاد المسلمين من أكثر من جانب، وقد استولوا على أكثر مدن الشام سوى دمشق وعمّان وأعالي البلقاء.

– صقر: هل علمت يا والدي إلى أين وصل الروم؟

– ما الخبر يا صقر؟

– لقد وصل الروم إلى الساحل، وهم يستعدون لدخول عكا، وقد تولى عليهم رجل من نسل هرقل عظيم الروم، وهو يطيعونه ولا يعصون له أمراً.

– ممم، إذاً اقترب موعد الهدنة.

– أي هدنة يا أبي؟

– ستعلم وقتها، والآن يجب الانضمام إلى جيش المهدي للجهاد معه.

– هل تعلم ماذا قال ملك الروم؟ إنه يظن أن له حقاً في بلادنا، وأنه أحق منا بالقدس وبالشام عموماً، لقد قال: "حتى متى وقد غَلَبَنا هؤلاء على مكان من أرضنا، لأخرجن فلأقاتلنهم حتى أَغْلِبهم على ما غلبوا، أو يغلبوني على ما بقي تحت قدمي".

– إذا لقد ألقى بنفسه وبقومه إلى التهلكة، وأين هم الآن وماذا فعلوا؟

– لقد خرج الهرقلي في سبعة آلاف سفينة، حتى نزل بين عكا والعريش، ثم أضرم النار في سفنه، فخرج أهل مصر من مصر وأهل الشام من الشام حتى صاروا إلى جزيرة العرب.

– حسناً يا صقر، أنا ذاهب للانضمام إلى جيش المهدي، وسأرسل لك بالأخبار بحسب المسافرين إليكم.

ودّع مهاجر "العشريني" ولده صقر وجميع أهله، ثم انطلق إلى حيث جيوش المهدي يهتدي إلى أحدها للانضمام إليها.

وكان لجيش المسلمين قادة يأتمرون بالمهدي، فكما أن للروم ملكاً لا يعصونه، فإنه للمسلمين أيضاً قادة لا يعصونهم، ويأتمرون جميعاً بأمر خليفة المسلمين المهدي، ومن هؤلاء القادة بالإضافة إلى جيش المهدي الذي هو قائده المباشر:

1- جيش الموالي الذي في دمشق، والذين قال فيهم النبي ﷺ: ﴿إذا وقعت الملاحم خرج بعث من دمشق من الموالي هم أكرم العرب فرسا وأجوده سلاحا يؤيد الله بهم الدين﴾.

2- القحطاني اليماني، فعن كعب الأحبار قال: (على يدي ذلك اليماني تكون ملحمة عكا الصغرى وذلك إذا ملك الخامس من أهل هرقل).

وصل مهاجر إلى قيادة جيش المهدي وانضمّ إليهم جندياً مخلصاً بايع قائده المهدي على النصر أو الشهادة.

وأخيراً، يشعر مهاجر بأنه قد وصل إلى ما كان يحلم به، والذي طالما سعى لتحقيقه.

صحيح أنه لا يعلم إن كان ذلك حلماً أم على الحقيقة، حيث أنه لاحظ فيما بعد، أن ذاته الستينية لم تأتِ معه للانضمام لجيش المهدي، فهل لهذا تفسير ما؟ فكّر مهاجر في هذه المسألة كثيراً، وقد أخذت حيّزا مُهمّاً من تفكيره، لكنه لم يهتدِ إلى شيء ما في هذا الوقت، عموماً، المهم أنه الآن في جهاده الذي لطالما حلم به، ولا يريد أن يشتت تفكيره عن هذا الجهاد، وقد بدأ في تدريباته داخل الجيش على السيف والخيل والرمح والنبال، استعداداً لمعركة عكا القادمة فقد سمع أنها معركة مصيرية وحاسمة.

كانت الروم قد نزلت بسهل عكا، مستغلين انشغال المسلمين بقتالهم الداخلي، وذلك أيام القتال مع السفياني الثاني وما قبلها من مرحلة ضعف فيها الجهاد، فزاد أنهم في هذه المرحلة قد تغلبوا على أجزاء كبيرة من أرض فلسطين وبطن الأردن وبيت المقدس، حتى حدود عقبة أفيق، كل ذلك بأربعين يوما.

والآن بدأ مسير الجيوش المهدوية، فقد سار إليهم المهدي فناجزهم حتى نصره الله في معركة مرج عكا، بعد قتال عنيف بلغ فيه الدم ثنن الخيل، فهزمهم الله وقتلوهم، إلا عصبة ساروا إلى جبل لبنان ثم إلى جبل بأرض الروم.

ثم بعث المهدي إلى مصر وأهل العراق يستمدّهم فلم يمدونه، ومرّ بريده بمدينة حمص، فوجد عَجَمَها قد أغلقوا على من فيها من ذراري المسلمين.

فأعظمه ذلك، فسار بمن حضره من المسلمين حتى لقيه الروم بسهلة عكا، فقاتلوهم فهزمهم الله، وطلبهم المسلمون حتى لحقوا بهم إلى بلادهم وسار إلى حمص ففتحها الله على يديه.

وبعد هذه الانتصارات المتلاحقة للمهدي، والتي مع كل انتصار يشعر مهاجر بأنه في عالم آخر غير الذي كان فيه، فهم لا يقتلون إلا من يقاتلهم، ولا يقاتلون امرأة ولا شيخاً كبيراً ولا راهباً في صومعته، ولا طفلاً يلعب لا يعرف معنى القتال، إنهم لا يقطعون الطرق ولا يعتدون على أحد، ولا يبدؤون القتال إلا بعد إنذار وحوار وإمهال، لم يكن القتال هو الغاية بحدّ ذاته، بل

كان مجرد وسيلة مشروعة لدفع الظلم ونشر العدل وبسط الأمن والأمان.

بعد أن رأى الروم أن المهدي رجل مؤيد من الله تعالى، بعثوا إليه يسألونه الصلح الآمن، وذلك بعد أن أذاقهم العدو الآخر الهزائم الكبيرة على جَبَهات متعددة في أماكن أخرى.

إلى أن اتفق الطرفان، المهدي والروم، على أن يكون الصلح عشر سنين، وعلى أن يتعاونا على ذلك العدو الذي كانت له جيوش لها بأس شديد، لا تعرف الهزيمة.

وبعد هذه الهدنة وهذا الصلح، أصبحت المرأة تقطع الدرب إلى الشام آمنة، وانتشر الأمن والرخاء في هذه المناطق، وسارت قوافل التجارة بلا خوف، وبُنيت مدينة قيسارية التي بأرض الروم.

بدأ الجيشان الاستعداد لمعارك ذلك العدو، حيث كان جيش العدو متمركزا حينها في الكوفة، التي كانت تُعرك عرك الأديم على أيديهم، فأرسل المهدي جيشاً لتأديبهم، وهو أول لواء يعقده المهدي، فطلب العرب من الروم المدد العسكري عليهم، فأمدوهم، وكانت معركة لم يُشهد لها مثيلاً، نصر الله المسلمين

فيها نصراً مؤزراً، وكانت هذه الجولة الأولى لهذا التحالف الجديد بين المسلمين والروم، وكان مهاجر في أشد سعادة شعر بها في حياته، أنسته كل ما لقي من شدة وعذاب في حياته.

ثم بعث المسلمون جيشاً إلى الجبهة الثانية في الأهمية، بعد جبهة الكوفة، إلى القسطنطينية غوثاً للروم ضد جيوش الترك والعجم، وكانت أيضاً ملحمة كبرى لم يُشهد لها مثيلاً، نصرهم الله عليهم فهزموهم.

وفي خضم الفرح بهذا الانتصار الرباني، وقف جنديٌ من الروم فصاح قائلاً مخاطباً جيش المسلمين: بصليبنا غلبتم فأعطونا حظنا من الغنيمة والنساء والذرية.

فردّ عليه المسلمون: بل الله غلب. وأبى المسلمون أن يعطوهم أحدا من هؤلاء الأسرى من النساء والذرية.

فقالت الروم: لا نزال نقاتلكم حتى تخرِجوا إلينا كل بضعة فيكم من غيركم.

فخرج جماعة من جيش العجم كانوا قد دخلوا الإسلام فقالوا: معاذ الله أن نخرج إلى الكفر بعد الإسلام فغضب

المسلمون، وصليب الروم منهم غير بعيد، فثار ذلك المسلم إلى صليبهم فدقه فكسره، فبرزوا إلى كاسر صليبهم فضربوا عنقه.

فعندها ثارت تلك الجماعة من المسلمين إلى أسلحتهم، وثار الروم إلى أسلحتهم، فقتلوا تلك الجماعة من المسلمين، الذين كُتبت لهم الشهادة، فأتى الروم ملكهم فقالوا: قد كفيناك حد العرب وبأسهم فماذا ننتظر؟

فبدأ الروم بجمع بعضهم ومخاطبة حلفائهم، في مدة "حمل امرأة"، ليكونوا جيشاً من ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً.

*****

الجمع للملحمة الكبرى..

بدأ المسلمون الاستعداد والتحضير لتلك الملحمة الفاصلة الحاسمة، الملحمة العظمى، بعد أن رفض المسلمون تسليم من معهم من الأسرى من المسلمين ممن كانوا في جيش الترك والعجم، ممن خرجوا معهم مضطرين للقتال، فكان ما كان من غدر الروم لهم، وبدأ تكوُّنُ فسطاط المسلمين الذي لا نفاق فيه في دمشق، حيث القيادة العامة لانطلاق الجيوش نحو الروم في القسطنطينية (إسطنبول).

فعن أبي هريرة ﷺ: (لا تذهب الليالي والأيام حتى يغزو العادي روميّة، فيفعل إلى القسطنطينية، فيرى أن قد فعل)[20].

في هذه الأثناء كتب مهاجر إلى صقر يُعلمه ما حدث وإلى أين قد وصلت الأمور والأحداث، وما هم مقبلين عليه، فبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى وسلم على سيدنا محمد ﷺ، كتب لصقر:

[20] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.

أما بعد، فإنني أحمد الله تعالى، الذي أكرمنا من نصر إلى آخر، وقد غدرت الروم بنا ونقضوا الصلح الذي كان بيننا، ونحن الآن نعدّ للملحمة الكبرى، التي لطالما كنت أحلم بالمشاركة فيها، وقد نزلنا في دمشق نصفّ الصفوف ونجمع العرب ونعدّ العدة للقاء الروم، ووالله لقد صدق رسول الله ﷺ حيث قال: ﴿**فُسطاطُ المسلِمين يوم المَلْحمَةِ الكُبرى بأرضٍ يُقال لها: الغُوطَة، فيها مَدينةٌ يُقال لها: دِمشق، خير منازلِ المسلِمين يومَئذٍ**﴾[21].

وقال ﷺ: **(لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا..).**

فوالله إن هذا لهُوَ الذي حدث يا صقر، وإننا نسأل الله تعالى أن يكرمنا بالنصر قريباً، والسلام.

---

[21] رواه أبو داود والطبراني والبزار وغيرهم.

وبعد مضي شهور الإعداد التسعة، اصطفّ الجيشان للقتال في سهل مرج دابق شمال مدينة حلب.

بدأ القتال بين الجيشين، فارتفع التكبير في صفوف المسلمين، وبدأت أشعة ضربات السيوف وأصواتها، تنتشر في كل مكان، لا تكاد تسمع إلا هذه الأصوات، وحمي الوطيس، وعلا الغبار، وبلغت القلوب الحناجر، وكان للمهدي صولة وجولة في هذه المعركة يضرب بسيفه في سبيل الله، ويُثبّت المسلمين، حتى يميز الله الخبيث من الطيب، ويُنزل نصره على الصابرين الصادقين.

وكان من نتائج المعركة أن نصر الله جيش المسلمين نصراً مؤزراً، أنهى فيه المسلمون اسطورة الروم.

فانهزم ثلث من جيش المسلمين، وهؤلاء لا يتوب الله عليهم أبدا، وقُتل ثلث منهم، وهؤلاء هم أفضل الشهداء عند الله، وافتتح الثلث، وهؤلاء الذي لا يُفتنون بعد ذلك أبداً.

ثم بعد ذلك توجّه جيش المسلمين إلى فتح القسطنطينية، وكان في الجيش أيضاً مع المهدي، سبعون ألفا من بني إسحاق،

فوقعت معركة قبلها، فتح الله للمسلمين فيها مدينة عمورية، ثم مدينة نيقية ثم توجهوا إلى القسطنطينية.

فلما جاءوها نزلوا عند بابها، فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، فقالوا: لا إله إلا الله والله أكبر. فسقط أحد جانبيها، وهو الذي في البحر، ثم قالوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فسقط جانبها الآخر، ثم قالوا الثالثة: لا إله إلا الله، والله أكبر، ففُرج لهم، فدخلوها بحمد الله وفضله وغنموا الكثير.

فبينما هم يقتسمون الغنائم، وقد علّقوا سيوفهم على أشجار الزيتون، إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فقاموا بترك كل شيء ورجعوا إلى الشام يطلبون أهلهم وذراريهم، يعجّلون في العودة، حتى اكتشفوا أنه كذب.

*****

وهكذا بعد انتهاء المعارك، خرج مهاجر من دمشق بعد أن التقى بالمهدي ودار بينهما حوارٌ يُلخِّص فيه الحاضر والمستقبل.

بعد أن ودّع أصدقاء السلاح والجهاد، عائدًا إلى بيت المقدس، وما إن وصل إلى بيته، حيث كان صقر وأهله في الانتظار وكان لقاءً مليئاً بالفرح بالانتصار والفرَج الذي أكرم الله به الأمة.

– مهاجر: احفظ هذا اليوم جيدًا يا صقر، يومٌ من أيام الله تعالى، التي نصر فيها المسلمين.

– نعم يا أبي، نحن الآن في عام 1493 من الهجرة، الموافق ل 2070 من الميلاد.

– نعم هو كذلك، فلم يتبقّ لظهور الدجال ثم نزول السيد المسيح ﷺ سوى سبع سنوات كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ، فيكون زمنهم على رأس مئة من عمر الزمن، والآن يا صقر لا أعلم كيف سأعود إلى زمني، ولا أعلم كيف سأخبرهم بكل ما حدث.

ولكن أين ذاتي الستينية؟ لم ألتقِ بها من قبل أن أذهب للجهاد!

– صقر: لقد انتهت مهمته حين لقيك في ذلك اليوم، حيث كان عليه أن يوصل إليك رسالة، وقد أوصلها فعلاً، والآن ستعودُ إلى منامك في الكهف، لترجع إلى زمنك، فتبدأ رحلة كفاح علمية غير مسبوقة، تكتب فيها ما حدث معك وتبين للناس الحقائق، بعد أن عايشت الجهاد المزيف المزعوم، وخضت الجهاد الحقيقي، فعلمت الفرق بينهما، وعشت الفوارق بين أهليهما.

– نعم يا ولدي، وسأنقل ذلك الحوار الممتع الذي دار بيني وبين المهدي، والذي يلخص الماضي والحاضر والمستقبل، ويبين أسرار الصراع بين البشر من أجل الاستئثار بالحكم، وأحمد الله تعالى أن أكرمني بهذه الرؤيا.

– أجل يا والدي، فما كنت تستحق هذه الرؤيا إلا إكراماً لصدق نيتك في الجهاد والبحث عن الحقيقة، فإنما الأعمال بالنيات.

وقد وقع العديد من الشباب في الفتن لتشابهها، ولكنك سعيت لتتعلم الحق لتبتعد عن الشبهات، فأحيانا تتشابه الأحداث فتضلل من لا علم له، فالروم هم الروم، ومواطن وقوع الأحداث

هي ذاتها، ولكن الدجاجلة يخدعون الشباب ويستغلون فيهم صدق العاطفة، فيصنعون لهم ما يشبه الأحداث المذكورة في الروايات، فيلقون بهم في معارك الوهم، ويوجهونهم نحو دركات الهلكة، ومطبات القتال التي لا إعداد فيها ولا مساواة مع جحافل العدو الغاشم.

فهنيئاً لك صدق النية، فمن سأل الله الشهادة وهو صادق، أكرمه الله بها ولو كان على فراشه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، وكفى بكم أن علمتم ما أكرم الله به أمير المؤمنين وقِفل الفتنة وبابها العريض عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين أكرمه الله بالشهادة وهو في مدينته وعلى فراشه.

قال ﷺ: **(مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ).**

ولكن أخبرني يا والدي عن الحوار الذي دار بينك وبين المهدي.

– نعم، حدث ذلك بعد أن نصرنا الله في الملحمة العظمى، وبدأت بوداع الإخوة، توجهت لوداع المهدي، فسألني:

– من أيّ زمان أنت يا فتى؟ فقد تفرست فيك غُربة الزمان، ولمحت فيك تفرُّداً وميزة.

– فراستك في محلها يا مولاي، فأنا قادم من زمن الجاهلية الثانية، زمن حب الدنيا وكراهية الموت، زمن الوهن والسنوات الخداعات، التي نطق فيها الرويبضة، وعلا فيها الأصاغر على الأشراف، وتحكم الجبابرة والطواغيت في رقاب الناس، فهانت عليهم الدماء والأعراض، واستأثروا فيها بالفيء والغنائم والأموال، فكدسوها وأعطوها لأعداء الأمة هينةً بلا كدّ ولا تعب منهم.

– إذاً أنت من زمن فتن الأحلاس والسراء، وفتن صياصي البقر المتشابهة، زمن التجهيل والخداع والتدليس، زمن صناعة النبوءات المزيفة والرايات المزورة، وظهور الدجاجلة وأئمة الضلال، أليس كذلك؟

– بلى والله يا أمير المؤمنين، كم كنا نحلم أن يبعثك الله في زمننا لنتخلص من الظلم والفساد.

– هل تظن لو أنني بُعثت في زمنكم، كنتم ستقومون معي بواجب الجهاد حق القيام؟

– في الحقيقة لا أظن ذلك.

– اسمع يا مهاجر، أنتم في زمنكم تسمونني بالمهدي المنتظَر، أليس كذلك؟

– بلى هذا صحيح.

– ولكن هذا خطأ، والصواب أن تسموني بالمهدي المنتظِر، هل تعلم لماذا؟

– لماذا يا أمير المؤمنين؟

– القائد المسدد يا مهاجر يحتاج إلى جيش من الأبطال، يتألف من الكفاءات التي قام أئمة زمانهم بواجب تزكية نفوسهم، وتربية قلوبهم، وتصفية عقولهم من الشوائب والكدر، حتى يصبحوا من أولي الألباب الخُلّص، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، الذين يتدبرون آيات الله المكتوبة في كتابه والمسطورة في الكون الفسيح، الذين لا يسكن في أفئدتهم إلا حب الله تعالى، ولا يستشعرون إلا هيبة الله تعالى، ولا يشركون بذلك شيئاً يا مهاجر.

فهل عرفت الآن ما معنى كلمة المنتظِر؟ فأنا الذي كنت أنتظركم لكي تكونوا أهلا لشرف حمل لقب "جند الله" الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُون﴾ [الصافات:173].

أبلغ أهل زمانك يا مهاجر رسالتي هذه، وليعلموا أن وعد الله حق، وأنه على نصرهم إذا شاء لقدير، فلينصروا الله لينصرهم، وليكونوا على قلب رجل واحد، وليتدبروا وصية رسول الله ﷺ في حُسن التمسك بالثقلين.

- وما هي هذه الرسالة ي أمير المؤمنين؟

- تمسكوا بالكتاب والسّنة والعترة.

وأخيراً، هذه رسالة توعوية أكثر من كونها رواية خيالية، لكل شاب بأن يُثقف نفسه بعلم أشراط الساعة والملاحم والفتن، وأخبار آخر الزمان، حتى لا يقع فريسة لأصحاب الأجندات الخاصة، وأصحاب الأيدولوجيات الاستغلالية الفاسدة والمفسدة.

*****

شكرا لكم على حُسن القراءة، وإلى الجزء الثاني بإذن الله

مع رواية: (زمن الدجال).



كتب المؤلف المطبوعة:

1- الخلافة المقدسية – 2017

2- الفتن الواردة في القرآن الكريم – 2019

كتب للمؤلف تحت الطباعة:

1- العالمية في القرآن الكريم (بين المهدي والمسيح ﷺ)

2- شرح أحاديث الفتن في (صحيح مسلم).

3- الفتن المحيطة بالأسرة.

4- هرمجدون.